مذهبه فى الشعر

قال خليل مطران فى مقدمة الجزء الأول من ديوانه متحدثًا عن شعره :

« عدت إليه وقد نضج الفكر واستقلت لى طريقة فى كيف ينبغى أن يكون الشعر ، فشرعت أنظمه لترضية نفسى حيث أتخلى ، أو لتربية قومى عند وقوع الحوادث الجلى ، متابعًا عرب الجاهلية فى مجاراة الضمير على هواه ، ومراعاة الوجدان على مشتهاه ، موافقًا زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب ، لا أخشى استخدامها أحيانًا على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب ، ذلك مع الاحتفاظ جهدى بأصول اللغة وعدم التفريط فى شىء منها إلا ما فاتنى علمه أو تجاوز إدراكى فهمه ، ولم أكن مبتكرًا فيما صنعت ؛ فقد فعل العرب فى كل زمان قبلى مالا يقاس إليه فعلى ؛ فإنهم توسعوا فى مذاهب البيان توسع الرشد والحزم ، وجاريتهم فى تصريف الكلام على ما اقتضاه هذا العهد من أساليب النظم .

فيا هؤلاء ، نعم هذا شعر عصرى ، وفخره أنه عصرى ، وله على سابق الشعر ، مزية زمانه على سالف الدهر .

هذا شعر ليس ناظمه بعبده ، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده ، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح ، ولا ينظر قائله إلى جمال البيت الفرد ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ، ودابر المطلع ، وقاطع المقطع ، وخالف الختام ، بل ينظر إلى جمال البيت فى ذاته وفى موضعه وإلى جملة القصيدة فى تركيبها وفى ترتيبها وفى تناسق معانيها وتوافقها ، مع ندور التصور وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشفوفه عن الشعور الحر وتحرى دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر .

كذلك حاولت أن أصنع شعرى وأعرف أننى لست من العلم واقتدار الفكر فى المكان الذى يبلغنى منه أوفى المرام ، ولكننى تيقنت أن ما أردته به من الأغراض قد نفذ إلى قلوب قارئيه وأحدث فيها ما أبتغيه من الأثر ، وكفى بذلك سروراً لى ورضى ، إلى أن يجىء فى زمانى أو بعدى من يدرك من طريقتى الشأو الذى قصرت عنه ويصل إلى المقام الذى لم أدن منه .

على أننى أصرح غير هائب أن شعر هذه الطريقة – ولا أعنى منظوماتى الضعيفة – وهو شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعاً ، وللدلالة على صعوبة الوصول إلى الإتقان فى مثل هذا النوع من النظم نشرت فى هذا الديوان القصيدة الأولى من شعر الصبى وعدة قصائد أخرى ، كان فى وسعى أن أضرب عنها صفحاً وأن أكتفى بما أستجيده من قولى ولا آخذ على نفسى فيه شيئاً ؛ غير أننى آثرت أن يدارجنى القارىء مدارجة على كونها غاية فى الإيجاز تمثلنى لديه تمثيلاً إجمالياً فى كل حال مررت بها من أحوال هذه الطريقة ؛ وليس أكثر شعرى هذا بين الطرس والمداد إلا مدامع ذرفتها وزفرات صعدتها وقطعاً من الحياة بددتها ، ثم نظمتها فتوهمت أنى استعدتها .

على أننى لم أخل إلى الآن شعرى من كل ما آخذ عليه السابقين بسيرى على هذه الطريقة الفطرية الصحيحة ، ولكننى أرجو أن أقدم على ذلك فى المستقبل إن كان فى الأجل فسحة » .

ماذا يعنى مطران بهذا الكلام الذى ألقاه على الناس عام ١٩٠٨ ؟ ماذا يعنى بقوله : « سأجارى الضمير على هواه والوجدان على مشتهاه ، موافقاً زمانى فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب » ؟ .

إنها الثورة على أوضاع الشعر العربى والخروج على ما تواضع عليه

القوم حتى ذلك اليوم ، وقد كان مطران فى ثورته ابتداعيًا متأثرًا إلى حدما تأثرا مثاليًا بالابتداعيين الفرنسيين أمثال : لامارتين وهوجو وموسيه ، لا سيما الأخير منهم الذى قال فيه :

شاعر كان عمره بيت تشبيـ ـب وكان الأنـين فيه الرويا

وهو وصف ينطبق على شعر الشباب عند مطران الذى زخر بالمذهب الابتداعى (الرومانتيك) وتغلب فيه الشعور والخيال على العقل والتفكير مع روح من اليأس والتشاؤم والامتزاج بالطبيعة الخالدة إلى حد التفانى .

وقد تحرر مطران فى ثورته على أوضاع الشعر العربى القديم من كل ما يعوقه عن التعبير الصحيح عن مشاعره ، ولعله أول شاعر معاصر تحرر من ضرورة القافية مع العناية التامة بوحدة الموضوع ، وهذه أبيات من إحدى قصائده الباكرة :

البحر ساج والسكينة سائده   والليل داج والمدينة راقده
غمر الظلام هضابها وجبالها   وقلاعها وصروحها فأزالها
شبه المحيط المستوى وبقاعه   ما لا يرى من شُمه وبقاعه
لا نجم فى الأفق المحجب سافر   خلل السحاب ولا سراج ساهر
وإذا أصاخ إلى الجهات مطيف   سمعا فلا ركز يحس خفيف
إلا خطا شبح ضئيل هائم   كالوهم يسرى فى مخيلة واهم

ولقد كان لمطران علم غزير باللغة العربية وأسرارها ومفرداتها وصيغها ومبانيها ، عاونه على ثورته الابتداعية ، فأتى بكل مبتكر فى موضوعاته وتشبيهاته وصوره الشعرية الرائعة فجاءت كما أرادها :

خواطر وضاءة   بها ملامح السهر

obeikandi.com

ألبستها من أدمعى ومن دمى هذه الحبر

قشيبة غريبة عصرية نسج مضر

وكان لمطران ما أراد من أثر فى معاصريه ، فالتف حوله تلاميذه ومريدوه وتابعوا طريقته ودعموا مدرسته فى الشعر العربى ؛ بل لانعدو الحقيقة إذا قلنا إن مطران قد علَّم جيلا من الأدباء ؛ ولعل الدكتور أبا شادى خير معبر عن رأى هذا الجيل بما ذكره فى ديوانه « أنداء الفجر » عن مطران :

« عرفت محبة هذا الرجل الإنسانى وأستاذيته منذ ثلاثين سنة ، إذ تعهدنى صغيراً وبقيت أهتدى بهديه ، وأثره فى شعرى أثر عميق ، لأنه يرجع إلى طفولتى الأدبية ، ويصاحبنى فى جميع أدوار حياتى ؛ وإذا كان استقلالى الأدبى متجليًا الآن فى أعمالى فهو فى الوقت ذاته يمثل الاطراد الطبيعى للتعاليم الفنية التى تشربتها نفسى الصبية من ذلك الأستاذ العظيم ، وما زالت تحرص عليها نفسى الكهلة الوفية ، ناظرة إلى آثار الصبى وإلى معلمى الأول بحنان عميق » .

وإذا كان لمطران مدرسة فى الشعر فإنه لم يكن صاحب مذهب فى الفلسفة ، وما ورد فى أشعاره فى هذه الناحية لا يعدو أن يكون معانى معادة طرقها الشعراء من قبله كقوله :

همَّ فجر الحياة بالإدبار فإذا مرَّ فهى فى الآثار

والصبى كالكرى نعيم ولكن ينقضى والفتى به غير دارى

نعم المرء عيشه فى صباه فإذا بان عاش بالتذكار

أو قوله وقد رام إظهار هوان شأن الإنسان وهو يخاطب فراعين مصر بناة الأهرام :

يا أيها الموتى ألم يسـمعكم صوت المنادى صادعًا مرددا
قوموا انظروا السوقة فيما حولكم تدوس هامات الملوك همدا
قوموا انظروا أجسادكم معروضة فى مشهد لمن يروم المشهدا
بعث به يسألكم حساب ما قدمتم من راح منا واغتدى
لم يغنكم منه البناء عاليًا والأرض نهبا والملوك أعبدا

وكانت هذه الأشعار الفلسفية تغلب عليها صبغة الاستسلام لقدر الله وتصاريف الحياة كقوله :

فإذا وجدت الأمر مقـ ـضيًّا أسرّك أم شجاك
وعلمت أن الله يبـ ـلو خائفيه كما بلاك
ووثقت أن عظيم حز نك إنما يدمى حشاك
سلم إلى تلك الجلا لة فهى من عال تراك
سلم وقل يا رب إن رضاى ما فيه رضاك
فاجعل شقائى نعمة لابنى وسعدًا فى حماك
هذا هو السنن القويم فكلْ أساك إلى تقاك

ومطران فى سبحاته الفلسفية هذه واسع أفق التفكير كبير القلب ، يشمل بنظرته الإنسانية جمعاء دون النظر إلى اختلاف فى المذاهب أو الأديان أو الأجناس .

وهاك مثلا من هذا التفكير الفلسفى العاطفى فى قصته الشعرية (الطفل الطاهر) ، وهى من أروع قصصه الشعرية التى تنبع من عاطفته الإنسانية العميقة ، وفيها يثور على أحد رؤساء المذاهب الذى أصر على إبطال عقد زواج بين اثنين ، ولو تك هذا الإبطال لألحق بولدهما البرىء العار ، وكان الزوج المسيحى تزوج على غير مذهبه الأصلى :

يا طفلُ قلب طرفك المتـــــرددا أو ما ترى شبحًا عبوسًا أســـودا
متجسسًا لك من وراء ســـــتار

هذا أســـــــاء إليك قبل المولد وجنى عليك جناية المتعـــــمد
ومن الســـماء دعاك صوب النار

زعم الإله يريد مثـــــلك مذنبا من يومه ومـــــــعاقبًا ومعذبا
فى الغيب قـــــبل مظنة وسرار

رسل المســيح الشـــاربين دماءه الآكلين بلا تقًى أحشـــــــاءه
المولمين عليه كل نـــــــــــهار

الله أوحى فكرة هى دينـــــــه فمن اهتدى هى نوره ويقيـــــنه
أو ضلّ فليبحر بـــــــــغير منار

نزلت على الفادى الأمين الشافع كلمًا ثلاثا تحت لفـــــظ جامع
قدسيـــــة النفـــحات والآثار

الحب فى المعنى العميم الكامل معنى المراحـــم والفداء الشامل
بالبر للأعـــــداء والأنصـــــــار

لا تنقضـــــوا بيتًا لدى تكوينه وحذار من يتم الصـــغير بدينه
وحـــــذار من يأس الهضيم حذار

هذى المذاهب كلها دين الهدى كأشعة الشـمس افترقن إلى مدى
والملتقى فى مصـــــــدر الأنوار

* * *

شاعريته

لا شك فى أن مطران كان له خيال واسع مبتكر ونفس شاعرة شديدة الحساسية انعكست فى مرآتها الصافية أحداث عصره وانفعالات نفسه .

كان له وجدان مرهف سريع التأثر بما تقع عليه العين وما يعترض طريقه فى الحياة ، فيترجم عما يحسه بشعر بالغ فى الروعة لأن وراءه كنزاً لغوياً عظيماً ، ولذا فكثير من شعر مطران تدرك فى تضاعيفه جودة الصنعة الفنية ، من جزالة اللفظ وبسط المعنى وإبراز الفكرة وإحكام القافية ، وقد قيل إن مطران كان يشقى شقاءً مرًّا فى صياغة الشعر وإفراغه فى قالب خاص ، فالكلمة عنده لها قدرها ، والجملة لها قيمتها ، وكان يحرص أشد الحرص على انسجام موسيقاها وتناسب روابطها .

وإن الأمثال كثيرة لا سيما من هذا الشعر الغنائى المنتشر فى ديوانه ، والذى تكاد تحس موسيقى ألفاظه كقوله :

حسناء لكن تفور بادٍ عليها الفتور
لا تكسر الجفن إلا وقلب صبٍّ كسير
ولا تبسم إلا وجفن باك يمور
ولا تلفت إلا وجيرة الحى صور
يا قرةً لعيونى فى الصدر منها سعير
كم جئتكم مستزيراً وطيفكم لا يزور
إن كان صبرى قليلاً فإن وجدى كثير
وما المحب صدوق فى الحب وهو صبور

وإن الكلمات لتكاد تهتز طرباً لما حواه تركيبها من موسيقى لفظية عجيبة باستعمال اللام المكررة فى قوله :

القلـــوب والمقل هن للهـــوى رسل
لسن للهوى عللاً فى الهوى لها علل

أو قوله مستعملاً حرف الراء المكررة :

سررت فى العمـــــر مره وكنتِ أنتِ المســـــره
كانت حـــــياتى روضًا وكنت فى الروض نضره
وكان غصنـــــا شبابى وكنت فى الغصن زهره
وكان فـــــكرى سماءً وكان حـــــبك فجره
وكان لحظك يهـــــدى إلى بيـــــانى سحره

ويغلب على شعر الشباب الروح الابتداعية التى تغلب العاطفة على العقل ، وقد أخرج لنا مطران فى تلك الحقبة من حياته شعراً فى الصدارة من الشعر الغزلى للعصر الحديث أفردنا له مكاناً خاصاً من هذا البحث .

* * *

شعر الطبيعة وشعر القصص

أما شعر مطران فى الطبيعة فسيماه الحب العميق الذى يحسه الشاعر نحو الطبيعة الخالدة إلى حد التفانى فيها والامتزاج معها ، فلا يعود هناك عنصران مختلفان بل شخصان من عنصر واحد أو روحان تتناجيان ، فاستمع إليه يتساءل عن صديق صباه النهر :

والنهر هل هو لا يزال كما ... كنا لذاك العهد نألفه

يسقى الغياض زلاله شيما ... ويزيد بهجتها تعطفه

يطغى حيال السد أو يجرى

متضايقًا آنـا ومنفـرجا ... متخللا خضـر البساتين

متهـللا لتحـية الشـجر ... متضاحكا ضحك المجانين

لملاعب النسمات والزهر

وهكذا فالطبيعة دائمًا لديه روح حية يخاطبها وتخاطبه ويحدثها ويتحدث عنها وهى تشركه شعوره وعواطفه :

وفى الهـواء حنين ... تذوب منه الصخور

وللنسيـم حديث ... على المـروج يدور

وللأزاهـر فكـر ... يرويه عنـها العبير

وفى قصيدة أخرى نراه يبعد فى الخيال فيتوهم قصة حب بين وردة وزهرة من زهور الزنبق ويرويها فى شعر بلغ منتهى الرقة :

فطفت على الأزهار فى أمن نومها ... أنبهـها جذبا إلى فتجفلُ

أحاول سـلوانا بتشكيل باقة ... فأقتل منها ما أشـاء وأثكل

وما كنت من يجنى عليها خلائقًا ضعافًا ولكن جنّة اليأس تحمل
إلى أن بدت لى وردة مستكينة كأن دموع الفجر فيها تهلل
لها طلعة الجاه المؤثل والصبى وفى الوجه تقطيب لمن يتأمل
تلوح عليها للكآبة والأسى مخايل دقت أن ترى فتخيل
ويكسبها معنى الحياة ذبولها لدى ناظريها فهى فى النفس أجمل
مليكة ذاك الروض جاور عرشها من الزنبق العاتى مليك مكلل
بنية عفوًا عنهما فكلاهما شقى يود الموت والموت ممهل
فلا تسبقى سيف القضاء إليهما على أنه يشفيهما لو يعجل
حبيبان سرا ساعة ثم عوقبا طويلاً كذلك الدهر يسخو ويبخل
لقد جاورت هذى العروس أليفها لدُنْ هو مياس المعاطف أميل
فكان إذا مرت به نسم الصبا يميل إليها عاشقًا يتغزل
يداعبها جهد الصبابة والهوى ويعرض عنها لاعبًا ثم يقبل
ويرشف كلٌ من جبين حبيبه دموع الندى خمرًا رحيقًا فيشمل
ولكنه لم يلبث العود أن قسا فلم تثن عطفيه جنوبٌ وشمأل
فشق عليها بينه وهو جارها وباتت لفرط الحزن تذوى وتنحل

وقليل فى ديوان الخليل الوصف الواقعى للطبيعة كوصفه لصيف الصعيد وحره :

أوقد الصيف فى الصعيد لظاهُ فأجف الحقول والآجاما
وغدا الناس بين جو كثيف مترد من الغبار غماما
وفلاة كأنما الرمل فيها شرر مدَّه لمعة واضطراما
وكأن المياه فى النيل تجرى بخطى أبطأت ووجه تعامى

وقد أكثر مطران من كتابة الشعر القصصى ، وكان لنا منه فتح جديد فى عالم الشعر العربى ، وقد اتخذ هو منه وسيلة للتعبير عن أحاسيسه الإنسانية وعواطفه الصادقة لبنى الإنسان ، فاستمع إليه باكيا متفجعاً وهو يروى قصة العوادة المتسولة التى ماتت مريضة بعد عام من زواجها فى قصيدته (وفاء) وذلك على لسان زوجها :

فجعت فؤادى يا زمان بخطبها
فليتك مرزوء الفـــــؤاد بأفجع
عروس لعام لم يتم صرعـــــتها
ولو شئت لم تضرب بأمضى وأقطع
فباتت على مهد الضنى ما لجفنها
هجوع ولا جفـــــنى يقرُّ بمهجع
وكانت ربيعا لى فأقوت مرابعى
من الزهر والشدو الرخيم المرجع

إن مثل هـذا الشـعر ينـم عن شعـور صـادق بالمشـاركة فى السـراء والحزن ، وإنك لتجـد منه أمثـلة كثيـرة كقـصـة (الجنـين الشـهيد) و (المنتحر) و (الطفل الطاهر) .

وليس كل شعر مطران القصصى أو قصصه الشعرى فواجع ومآسى ، بل هناك نواحٍ مشرقة مستملحة أجاد فيـها الدعابة الخفيفة الراقية كقصة (إن من البيان لسحرا) وهى قصة شاعر عذب الحديث ساحر البيان نهيت الفتيات عن الاستماع إليه ، لكنهن لم يعبأن بالنهى وانسللن إليه خفية فأخذ يقص عليهن من القصص ما سحر ألبابهن وأوقعهن فى أسر بيانه :

سر العذارى منبىءٌ عن شاعر للحى زائرْ
فقصدنه وسخرن من زجر الأميمات الزواجر
ليرين فتنته التى تغوى العفيفات الحرائر
فوجدنه رجلاً مليـ ـحًا خلقه حسنَ الظواهر
لا شىء يفتضح النهى فيه كما ادعت النواهر
فسألنه إنشاد شىء من بدائعه الحواضر
فأطاعهن ومن ترى يعصى الجميلات الأوامر
فعقدن فيما حوله عقدًا فريدًا من جواهر
وتناول الرجل الربا ب وفكره فى الغيب ناظر
وأثار فى الأوتار تغـ ـريدًا كأن العود طائر
ثم انبرى يروى روا يته وتتبعه الخواطر

* * *

ثمْ انثنين مُكفكفاتٍ دمعهن عن المحاجر
متلفتات نحو من هو مثله غَزِلٌ وشاعر
كل تقول بلحظها يا قيس إنى بنت عامر
تالله أنصفت النوا صح ليس هذا غير ساحر

ولقد وسعت شاعرية مطران الفياضة كل فنون الشعر المنوعة ، فله فى الوطنية قصائد كثيرة، كان دائم الحنين إلى وطنه الأول الشام والفخر به

إيه آثارَ بعـــــلبكّ سلامٌ بعد طول النـــوى وبعد المزارِ
ووُقيت العـفاء من عَرصَاتٍ مقويات أو آهلٍ بالفـــــخار
ذكرينى طـــفولتى وأعيدى رسم عهد عن أعينى متوارى

* * *

أهل فينيقيا سلام عليكم يوم تفنى بقية الأدهار
لكم الأرض خالدين عليها بعظيم الأعمال والآثار
خضتم البحر يوم كان عصيا لم يسخر لقوة من بخار
وركبتم منه جواداً حروناً قلقاً بالممرَّس المغوار

وهو يردد هذا الشعور فى كثير من قصائده لاسيما إذا أحس آلام الاغتراب :

فذكرت مغتربى فتياً عن عشيرى الأوفياء
بولاء طفل لم يذق ألم الفطام من الولاء

ولقد كان لا ينسى واجب الوفاء لوطنه الثانى الذى أحبه وأخلص فى حبه الولاء .

ولم يكن مطران متخلفا عن عصره ، بل كان يجد مادة شعره فيما حوله من بيئة وأحداث ، ولذا فقد سجل التاريخ حقبة من الحياة بكل ما فيها حتى مخترعات العلوم .

ولا شك أن الكشف عن أشعة (رنتجن) كان حدثاً فى العلوم خطيراً ، وقد سجله مطران فى شعره حيث قال :

فحدثتها عن ضياء عجيب يسر برؤيته الزائرُ
له زرقة الماء لكنه شرار من النار مطاير
كمنتشر من غبار الزمر د يحمله لهب ثائر
كأن به للعيون عيوناً فكل خفى به ظاهر
يرينا الجسوم أضالع جفت وزايلها حسنها الناضر
هياكل محكمة شادها لطيف لما شاءه قادر

وإذا أضفنا إلى شدة حساسية الخليل عمق وفائه للأصدقاء علمنا السر الكامن وراء هذه القوة الخارقة لمراثيه وهذا التفجع الصارخ فيها :

لقد قال يرثي المطران بولس سليمان ، مطران شرق الأردن :

يدعوك معـــتل وأنت بعيد بالأمس كنـــت تعوده وتعيد
عز العزاء على السقيم يلج فى نسماته التصـويب والتصعيد
أأبا المروءة إن خطبك خـطبها أو لم تفارقها وأنت شـهيد ؟
رزئتك طائفة يحـــار محبها أنى يعزيها وأنت فقـــــيد

وكان مطران إذا بلغه نبأ وفاة صديق من أصدقائه زلزل كيانه للنبأ وبكى صديقه بالدمع السخين قبل أن يرثيه بالشعر الرصين ، وهو يحس ألم الفراق لما سيفقده فى الصديق الراحل من صداقة ومن عشير يشعر معه بدفء العاطفة الذى يجد فى طلبه المغترب ويحرص عليه ، وهو ما تحسه إذ تطالع رثاءه لنقولا توما :

وقف الزمان فما لوعـــدك موعدُ وعفا المكان فما لعهـــدك معهدُ
هى طلعة لك فى الحـــياة وغيبة كالظل إذ يبدو وإذ يتـــــبدد
بالأمس كنت وأمس فى أفق التقى شُقَّ الحجاب فكان مـــنك المولد
مات الودود الأريـــحى ولم يخب يومًا لديه الصـــــاحب المتودد
فى غربة قفراء لم يلمـــــم به سكن هناك ولم يـــــعده العوّد
يا ربِّ سلمنا وإن قطـــرت أسىً منا حشاشات وشقـــــت أكبد

أما رثاؤه لمصطفى كامل فقد غلبت عليه الروح الوطنية وأحس بفقده كخسارة وطنية كبرى للشرق العربى قبل أن يفقده كصديق :

أعلى مكـــانتك الإله وشرفا فأنعم بطيب جواره يا مصـطفى
اليوم فزت بأجـــر ما أسلفته خيرًا وكلٌّ واجـــد ما أسلفا
وجزيت من فانى الوجود بخالد ومن الأسى الماضى بمقتبل الصفا

فوردت وردك فى الخلود منعمًا والأرض مائدة عليك تأسفا
لم تُلف قبلك أمةً فى مشهد يذرو الرجال به المدامع ذرفا
يمشون من حول الجنازة ضائقًا بهم الرحيب من المسالك مصرفا
بحر من الأحياء نعشك فوقه فلكٌ يظلله اللواء مرفرفا
يبكون فى آثاره العلم الذى آثاره من رفعة لا تقتفى
جزع النصارى واليهود لمسلم هو خير من والى وأوفى من وفى
بكوا المرجى فى خلاف عارض ليزيل ذاك العارض المتكشفا
واشتد رزء المسلمين وحزنهم لما مضيت ولست فيهم مخلفا
مَن بعد كاتبهم وبعد خطيبهم يُعلى لهم صوتًا وينشر مصحفا
قف أيها الناعى عليه جموده فلقد تجاوزت الهدى متفلسفا

* * *

مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها وأرى ترابك من حنين قد هفا
وكأننى بالقبر أصبح منبرًا وكأننى بك موشك أن تهتفا
مصر التى غسلت يداك جراحها بصبيب دمعك جاريًا مستنزفا
مصر التى أحببتها الحب الذى بلغ الفداء نزاهة وتعففا
حتى مضيت كما ابتغيت مؤلفًا من شملها ما لم يكن ليؤلفا

* * *

من كان أقدر منك تصريفًا لما يعيى الحكيم مدبرًا ومصرِّفا
من كان أطهر منك خلقًا جامعًا فيه مهيبَ الطبع والمستظرفا
من كان أزهد منك إلا فى الذى يجدى البلاد فتبتغيه مُلحفا

* * *

لهفى على فخر الصبى هادى النهى عالى اللواء حمـــى المروءة والوفا
يا من نعى تلك الفضـــائل والعلى أغدت معالمهن قـــاعًا صفـــصفا
لا لا وحقـــك يا شهـــيد وفائه ورجائه كـــــذب النعىُّ وأرجفا
ما أنت بالرجل الذى يمســـى وقد مليء الوجود به ويصـــبح قد عفا

* * *

والآن نحن لدى ثراك نحـــــجه متلهبين تشـــــــــوقًا وتشوفا
نثنى وهل يوفى ثناؤك حـــــقه وبأى ألفاظ المحـــــــامد يكتفى

لقد أطلت الوقوف على هذا الرثاء لما يبدو فيه من روح الخليل السمحة التى تعالت على الصغائر ، ولما فيه من تسجيل رائع لشعور المصريين عامة لفقد مصطفى كامل ، وما فيه من دفاع مجيد عن الفقيد وآرائه ، ورد على خصومه وشانئيه ، وإثبات لحقائق تاريخية من تاريخ مصر كدنا أن ننساها .

بقى كلمة أخيرة فى الحديث عن شاعرية الخليل ، وهى أن الخليل عندما تقدمت به السن قل فى شعره جموح العاطفة ، وغلب عليه التعقل والهدوء ، اللهم إلا أن تثير شجنه ذكرى سانحة أو زهرة باسمة حتى قال فى آخر عهده :

فاعذروا ضعف شاعر يتغنى بتراجيع من بقايا اللـــيالى

ولذلك قلت استعارته المفاجئة وتشبيهاته الغريبة وتحليقه الجامح فى سماوات الخيال ، واستحالت النظرة الابتداعية المتشائمة إلى ابتسامة فيلسوف يرقب أحداث الحياة ويسجلها .

ومع ذلك ، فقد ظل مولعًا بالتصوير الشعرى يقدمه فى مراثيه فى

نوع من الواقعية العجيبة التى يسمو بها الفن سمواً عظيماً لما يصاحبها من خيال خصب فسيح المدى كقوله فى رثاء الشيخ عبد العزيز البشرى :

شخص قليل ظله طاوى الحـــشى   يمشى فلا تتـــــــوازن الكتفان

حفت ملامحه بمســـــــحة أدمة   هى من « منا » إن شئت أو عدنان

وبعارضيه الهـــــــــابطين ولمة   شعثاء لم تســـــــلم من الثوران

* * *

المرأة فى شعره

لقد عاش مطران حياته عزبا ، وبرغم ذلك فقد كان للمرأة أعمق الأثر فى حياته وبالتالى فى شعره ، لأنه عرفها ودرسها ، وأشاد بمكانتها بجديد نكاد لا نرى مثله فى الشعر العربى من قبله إلا نادراً .

والشعر العربى القديم فى المرأة لم يكن يعنى غالبًا إلا بمفاتن جسـدها ، وأنت لا تكاد تميز بين جميلات الشعر القديم لأنهن كلهن ذوات وجوه كالبدور أو الشموس وشعر كالليل ، وجبين كالصبح ، وخد كالورد .. إلخ هذه الأوصاف الغامضة الموحدة .

والمرأة فى الشعر القديم غالبًا ما تكون متهمة ، لأنه (ليس لمخضوب البنان يمين) ، أو كما قال المتنبى مشبها الدنيا بالمرأة :

فهى معشوقة على الغـدر لا   تحفظ عهداً ولا تتمم وصلا

شيم الغانيات فيها فما أدرى   لذا أنث اسمها الناس أم لا

أما مطران فقد رد للمرأة العربية كرامتها واعتبارها ، وأشاد بمكانتها من المجتمع فى شعره حتى قال :

إن لم تكن أم فلا أمة   وإنما بالأمهات الأمم

obeikandi.com

وأول ما يلفت النظر فى شعر مطران أنه يعنى بخصال المرأة قبل جسدها ، ويهتم بجمال عقلها قبل جمال جسمها ، وما أروعه فى ذلك حين يقول :

أذاك الجبـــين وبلـــوره ... يمثل أفكارهـــا الخاطره ؟
أتلك العيون وأنـــوارها ... مراء لأخلاقـــها الباهره ؟
أتلك الشفاه ومـــا قبلتها ... سوى الأم واللذة الزائره ؟
أذاك القوام ومن حـــسنه ... تميل الغصون له صاغره ؟
أذاك العـــفاف ومما صفا ... تقربه المقـــل الناظـــره ؟

ثم هو ارتقى بالمرأة من المثالية المشوهة الغامضة فى وصف الجمال إلى واقعية فنية واضحة المعالم دقيقة الخطوط ، فتراه يقول :

لها شعر كالللـــــيل يجلو سواده ... بياض نهار يبهر المتوســـــــما
وعينان كالنجمين فى حلك الدجى ... هما نعمة الدنيا وشـــــقوتها هما
وأهداب أجفان تخـــــال أشعة ... مصففة غراء تعكس عنـــــهما
ومنفرج عن خالص العـــاج مازن ... كأن الهوى قد بث فيه تنـــسما
وخصر إليه ينتهى رحب صـــدرها ... وقد دق حتى خـــيل بالثوب أبرما
فإن أقبلت فالغصـــن أثقله الجنى ... فمال قليلاً واستــــوى متقوما

وقد عرف مطران المرأة عن الطريق الطبيعى .. طريق الحب .. لقد أحب مطران مخلصاً ، وملأ الحب شغاف قلبه وفراغ حياته ، وصبغ تفكيره ، ولون شعره ، حتى إنه ليخيل إلى أن الحب كان أساس حياة مطران وأن حياة مطران لم تكن إلا دعوة متصلة للمحبة .

وهو القائل :

سوى الحب لا يشفى الفؤاد المكلَّما
ولا يهنىء العانى وإن كان مؤلما
وما زال ذو القلب الخلىّ من الهوى
كظمآن لا يروى له مورد ظما
هو الدهر كالتيار يكتسح الورى
بليل من الأحداث أعكر أهيما
فما أسعد الروحين أن يتلاقيا
ويقتسما فيه الأسى والتنعما
كما يتلاقى فى طريق مخوفة
غريبان نالت شقة السير منهما
وكم عاشق يسلو رزاياه بالهوى
وقد يجتلى وجه الهناء توهما
كسالك وعر راقه حسن كوكب
فأرجله تدمى وعيناه فى السما

ولعل قلب مطران قد هفا لكثيرات من النساء فقال فيهن شعراً ، لكنه لم يتعلق سوى بواحدة ، ولا شك فى أنه عرف غيرها ، لكنه لم يحب سواها ، ولم يخلص الهوى إلا لها .

وقصة هذا الحب طويلة ، وحوادثها منتشرة فى ديوانه ، ولو أنه أفرد لها فى الجزء الأول قسماً خاصاً بعنوان (قصة عاشقين) ، لكنى أعتقد أن هذه القصة أطول بكثير من هذا القسم المحدد من الديوان .. إنها الشعلة التى تأججت فى صدره يافعاً حين التقى بهذه الحبيبة ، وقد لسعتها نحلة فقال :

أفتدى من لسعتها نحلة تطلب وردا
ظنت الوجنة وردًا فأتت ترشف شَهدًا

وسعد بجوارها دهرًا قصيرًا له أثر فى حياته كبير ، وذكرى لم تمحها الأيام .. ذكرى ذلك الحب الساذج واللهو البرىء :

هل تذكرين ونحن طفلان　　عهدًا بزحلة كـــله غنم
إذ يلتـــقى فى الكرم ظلان　　يتضاحكان ويأنس الكرم

* * *

هل تذكرين بلاعــنا الحسنا　　حين اقتطاف أطايب العنب
نعطى ابتســامات بها ثمنًا　　وبنا كنشــوتها من الطرب

لكن الدهر لم يغفل عن هذه السعادة ، فاختطف هذى الحبيبة سريعًا وخلف لمطران لوعة وأسى صاحباه ما بقى من العمر ، وكأنى بالدهر قد غار من هذه السعادة كما يقول مطران :

كنا كغصنى دوحـــة نبتا　　بل زهرتى غصـــنٍ تعـانقتا
بل حبــــتين بزهرة نمتا　　وتساقتا لما تعاشـــــقتا
نار الغرام مع الندى العذب　　تمت ســـعادتنا على قَدَر
فسطت عليـها غيرة القدر　　أودت معًا بالعـــين والأثر
واســتبقت الباقى من الخبر　　ذكرى وتبـــصرة لذى لب
ماتت وكل ضـــاحك جذل　　ما للورى ولموت من جـهلوا
لا قلب يبـــكيها ولا مقل　　بل نبـــلها واللطف والأمل
وشـــبابها وطهارة القلب

وقد هاجر مطران من موطنه بسبب هذا الرزء ، كما يشير فى قصيدته « مشاكاة » :

أرى مثل سُهدىَ فى الكوكب　　أحلَّ به مـــثل ما حل بى ؟
يهيم هيامى من وجـــــده　　ويهرب من مـــهده مهربى ؟

ونجتاز هذا الفضاء الرحيب إلا بنا فهو لم يرحب

وتأججت نيران هذه الشعلة بفعل الفراق ، فألهبت مشاعر مطران ، وأشقته دهرًا طويلاً ، حتى داخل نفسه اليأس ، واصطبغت نظرته للحياة بصبغة التشاؤم ، وعظم حزنه على حبيبته ، حتى خال كل الوجود حزينًا .. فانظر إليه يصف الغروب الذى تغنى به الفنانون والشعراء :

يا للغروب وما به من عَبرةٍ للمستهام وعبرة للرائى
أو ليس نزعًا للنهار وصرعة للشمس بين جنازة الأضواء ؟
أو ليس طمسًا لليقين ومبعثًا للشك بين غلائل الظلماء ؟
أو ليس محوًا للوجود إلى مدى وإبادة لمعالم الأشياء ؟

بل حتى الموت تمناه لنفسه فقال :

من بالمنون لواله صبٍ ذاكى الأضالع مقلق الجنب
ليت الرزيئة فيكِ أودت بى فنجوتُ من ألمى ومن كربى
وفزعت من نفسى إلى ربى

وهو يردد نفس المعنى فى قصيدة أخرى :

إن لى فى الغيب إلفًا قد نأى عنى نفورا
حجبت منه الليالى عنى الصبح المنيرا
فإذا أدركته أطفأ تُ من وجدى السعيرا
واتحدنا فاغتدينا مَزْج روحين سرورا

وظل مطران حافظًا لعهده ، ذاكرًا لحبه ، وإذا كان حزنه قد تناقص مع الأيام إلا أن شعلة الحب بقيت مضيئة فى قلبه تنعكس أشعتها على أشعاره رقة وعذوبة .

* * *

obeikandi.com

أعمـــــاله

قال الخليل :

ويظل المـــرء فى دنيا ... هُ من شغـــلٍ إلى شغل
يُجدُّ منى ويخـــلقها ... على الأعـــوام كالحلل
ومن سنة إلى ســـنة ... يعـــاودهـا بـــلا ملل
فمن أمـــل إلى يأس ... ومـــن يأس إلى أمـــل
ولا سعدٌ ولا سلوى ... ولا مجد سـوى العمل

ولقد تمثل الخليل ما قال ، وعاش حياته مجدًّا فى العمل ، فأنتج كثيراً فى الشعر والأدب برغم مشاغله فى دنيا الصحافة والمال وميادين الاقتصاد المختلفة وإدارة المشاريع المنوعة .

استطاع الخليل برغم هذه المشاغل أن يهدى الأدب العربى ترجمة العيون من أعمـــال أدباء الغـــرب (كليالى ألفريد دى موسيه) ، ورواية (هرنانى) لفيكتور هيجـــو ، وترجـــم لكـــورنى مسـرحيات (الـسيد) و(سينا) و(بولكيت) ، وترجم لراسين رواية L ' incomparable Bérénice ولشكســـــبير رواياته الخالدة (هملـــت) و (ماكبث) و (عطيل) و (تاجر البندقية) و (الملك لير) وغير ذلك من الترجمات كما أصدر كتابه (مرآة الأيام) .

وكتب فى غير الأدب فترجم « تعليم الإرادة » لبايو و « التاريخ الطبيعى » لفيكتور ديرى و « الموجز فى علم الاقتصاد » و « الأحوال الزراعية فى القطر المصرى » .

وأخيراً أصدرت لجنة تكريم الخليل ديوان شعره كاملاً ، فما أحرى الخليل أن يوصف بقوله :

أبقيت ذكرك فى القلوب كريمًا ... وقضـــيت حيًّا وارتحلت مقيما

* * *

على محمود طه

يا مرسل النغم العالى صـدى ورؤى   ينصب فى أذن الدنـــيا وينساب
غنت به ضفتا الــوادى ورجـــعه   من ألسن الشرق أشــهاد وغياب(١)

أى على ! يا شاعر الجندول الحزين ما زالت أغانيك تملأ فراغ الكون وتتردد على كل لسان ومازالت ذكراك ماثلة أمام قلبى فى كل وقت تزكيها هذه الأغنيات الحالمة التى ترددها إذاعات العالم فى كل ساعة من نهار وليل ومازلت تحتل مكانك من مدرسة الشعر العربى الحديث التى كنت أحد دعائمها وتلاميذها المخلصين بل كنت أبرزهم طرا وأعمقهم أثرا وأبعدهم ذكرا .

وكم نفس عليك هذه المكانة من عالم الشعر الكثير من الشعراء والأدباء وغيرهم وكم من قائل : « كيف يسلك هذا الدخيل مسالك الشعراء ؟ » وكأن العاطفة الفياضة وقف على قوم دون آخرين أم كأنه ليس للمهندس أو الطبيب أو غيرهما من أصحاب المهن فى الحياة أن يعبروا عن مشاعرهم أدبا أو شعرا .

وكم من الناس حالت دونهم ظروف الحياة وبين ما يبتغون من عمل فى الحياة أو طريق .. وهل على طه إلا أحد هؤلاء الذين حولتهم ظروف العيش إلى غير وجهتهم الأولى ؟ .

لقد ولد ببلدة المنصورة فى شهر يولية سنة ١٩٠١ فى بيت من بيوتها العريقة إلا أن أباه كان تاجرا غير ذى ثراء وقد توفى عنه وهو فى التاسعة من عمره فكانت وفاته صدمة أليمة للطفل ولأسرته إذ أثرت على مورد دخلها تأثيرا كبيرا ولعلها أذاقته ضروبا من الحرمان الباكر الذى أثر

---

(١) من رثاء حسن كامل الصيرفى للفقيد .

obeikandl.com

فى حياته وشعره .. وأول هذه الآثار وأعمقها التحاقه بعد أن نال شهادة الدراسة الابتدائية بمدرسة الفنون والصناعات الخديوية ببولاق ليختصر طريقه إلى الحياة العملية .

وقد عمل بعد تخرجه فيها كمهندس للمبانى بمصلحة المبانى الأميرية ثم مديرا لقسم المبانى والمعارض بوزارة التجارة والصناعة ، فوكيلاً لمتحف فؤاد الأول الزراعى فمديرا لمكتب رئيس مجلس النواب .

كانت شخصية الشاعر المرحة الجذابة تضفى على كل وظيفة تقلدها مركزا ممتازا مهما صغرت وتحيطه هو بالإكبار والتقدير لما امتاز به من خلق جميل وتواضع عف وحديث عذب .

وكان عمله كوكيل لدار الكتب المصرية آخر منصب تقلده فى حياته الدنيا ولم تنقض على التحاقه به أشهر معدودات حتى اختطفته يد المنون فى السابع عشر من نوفمبر سنة ١٩٤٩ .

بيئة الشاعر

ولد على طه ومات فى النصف الأول من القرن العشرين وما أن شب عن الطوق وبدأ يتلمس طريقه فى الحياة حتى وجد أن كل ما حوله فى الوطن ثائر على وضعه .. هذا خليل مطران يتزعم ثورة فى الشعر وهؤلاء طه حسين والعقاد والمازنى يحاولون هدم ما تواضع عليه القوم وما قدسوه من وظائف الأدب العربى وأوضاعه بينما قاسم أمين يتزعم ثورة اجتماعية داعيا نصف الأمة للخروج إلى العمل والسفور بعد طول حجاب .. وهاهى ذى أصداء دعوة محمد عبده للتجديد فى المجال الدينى بل ها هى ذى الأمة كلها تثور ضد الغاصب المفتأت على حقوقها وجميع قيم الحياة فى القطر تتغير وتضطرب أمام ناظريه .

يرى الشاعر كل ذلك ويلمسه ويدرك بعقله وعاطفته حيرة بيئته وتذبذبها بين الأخذ بمدنية الغرب وتقاليد الغرب وعادات الغرب وبين

الاحتفاظ بمقوماتها الشرقية وتقاليدها الموروثة وبين الاندفاع فى تيار اللادينية الغربية أو الإبقاء على روحانية الشرق الكريمة ويرى النساء المصريات يحاولن نزع الحجاب عن وجوههن لكنهن يشفقن من ذلك حياء ويخشين النقد والتجريح .. فيقع هو نفسه فى حيرة أو بالأحرى تنعكس على وجدانه الحساس صور هذه البيئة .

وحين يتحدث الدكتور طه حسين باشا عن ديوان « الملاح التائه » يصور لك حيرة الشاعر قائلا « فأما معرفتى لشاعرنا المهندس قد أرضتنى فلأن شخصيته الفنية محببة إلى حقا فيها عناصر تعجبنى كل الإعجاب وتكاد تفتننى وتستهوينى فيها خفة الروح وعذوبة النفس وفيها الحيرة العميقة الطويلة العريضة التى لاحد لها كأنها محيط لم يوجد على الأرض ... ولقد صحبت الملاح التائه فى قصيدة « الله والشاعر » فأحسست كل هذا الذى صورته لك آنفا ورأيت رجلا لا هو بالشاك المطمئن إلى الشك ولا هو بالمستيقن المطمئن إلى اليقين ولا هو بالمنكر المستريح إلى الإنكار وإنما هو رجل مضطرب حقا ، مضطرب أشد الاضطراب يؤمن بالقضاء والقدر ثم يثور بالقضاء والقدر ، يرضى أحكام الله ثم يجادل فيها .. يشكو ثم يستسلم ويستسلم ثم يشكو ... رجل حائر دائر هائم لا يستطيع أن يستقر وأكبر الظن أنه لو استقر لكان أشقى الناس فهو سعيد بحيرته مغتبط بهيامه مبتهج بهذا التيه الذى دفعته إليه نفس طموح جدا لأنها نفس شاعر عاجزة جدا لأنها نفس إنسان »[١] .

يبدأ على طه قصيدته « الله والشاعر » التى تمثل حيرته أروع تمثيل يطلب المغفرة من الله لما زل به اللسان في سورة الغضب وآلام الحيرة :

لا تفـــرقى يا أرض لا تفـــرقى	من شبح تحــــت الدجى عابر
مــــا هــو إلا آدمــى شــقى	سمـــــوه بين الناس بالشاعر
طغى الأسى الداوى على صوته	يا للصـــــدى من قلبه الناطق
مضى يبـــث الدهـــر فى خفية	شكاية الخلــق إلـــى الخالق
لا تعدنى يا رب فى محـــنتى	مـا أنـــا إلا آدمــــى شــقى

(١) الجزء الثالث من حديث الأربعاء للدكتور طه حسين باشا .

طردتنى بالأمـــس من جنتى فاغفر لهـــذا الغاضـــب المحنق
حنانك اللهـــم لا تغضـــب أنت الجميل الصفح جم الحنان
ما كنت فى شكواى بالمذنب ومنـــك يا رب أخـــذت الأمان

ثم يمضى يتلمس الأعذار لأخطائه ونزواته فيقول :

تمردت روحى على هيكلى وهيكل الجسم كما تعلم
ذاك الضعيف الرأى لم يفعل إلا بما يوحى إليه الدم
ومثلما قدرت صورتها فروحك الصوت وروحى الصدى
طبيعة فى الخلق ركبتها وما أرى لـــى مال بناها يدا
لكنما روحك من جوهر صاف وروحى ما صفت جوهرا
أولا ، فما للخير لم يثمر فيها؟ وما للشر قد أثمرا ..
تقول روحى إنها ملهمة فهى لما قدرته متبعه
مقودة فى سيرها مرغمة وإن تراءت حرة طيعة

ومع كل فلست بأول مخطىء بل إن الخطيئة إرث فى دمائى قديم :

ولم أكـن أول مغـرى بما أغرت حـــواء أو آدما
إرث تمشى فى دمى منهما ميراثه ينتظـــم العالما

لكن هذه الثورة فى القصيدة تنتهى بالشاعر إلى أن يعود إلى ربه فهو الملجأ من كل أمر عسير :

ما عرفـوا فى صعقـات الردى إلاك من غـوث ومن منجد
ولا سرى فى الأرض منهم صدى إلا ودوى باسمـــك الأمجد

يقف طه حسين باشا عند هذه المقطوعة من الشعر ليستنتج لنا إن

حيرة على طه مبعثها تردده بين الشك واليقين .. بين الإيمان وبين الثورة على هذا الإيمان بينما يذهب الأستاذ أحمد حسن الزيات بك فى تعليل هذه الحيرة إلى ما كان يعانيه الشاعر فى صدر حياته من آلام الكبت والحرمان .. الحرمان من الحب والمرأة فى سن لا ينشد فيها الشاب غير الحب ولا يبصر سوى الجمال ولا يسعى إلا إلى اللذة ولا يحس الوجود إلا قصيدة من الغزل السماوى الرقيق يهتز لها الكون طربا .

ومرجع هذا الكبت والحرمان إلى ظروف البيئة فى الربع الأول من هذا القرن فهذه البيئة سواء فى محيط الأسرة أو المدرسة أو المجتمع تبعث على الانطواء وتدعو إلى التكبيل بكل قيد من القيود ، فالتقاليد الموروثة تفرض على الشباب فرضا بما فيها من نظم عنيفة وأساليب صارمة وكل عبث بهذه التقاليد عبث بقواعد الشريعة والعرف والآداب والأذواق حتى إذا خطر للشباب شيىء من التجديد فى وسائل العيش ومظاهر الزى وطرائق التفكير كان ذلك فى رأى القائمين على أمرهم خروجا على النظام وثورة على الاحتشام واندفاعا إلى هاوية الغى والفساد وانحرافًا عن معانى الفضيلة ومناهج الأخلاق .

وكانت بيئة انعدم فيها الاتصال الكامل بين الرجل والمرأة حين وقفت التقاليد الموروثة وبقايا الحجاب سدا هائلا وجدارا منيعا بين الشباب من الجنسين (١) .

ولم يجد على طه ما يفرج عن آلام نفسه سوى إرسال قصائده الحزينة التى يقرضها إلى مجلة « السفور » ، التى كان يشرف عليها الأستاذ الزيات فى ذلك الوقت ولقد تلقى أولى قصائده وعنوانها « الأمسية

---

(١) بحوث الأستاذ أنور المعداوى فى الرسالة عن على طه .

الحزينة »[1] غفلا من الإمضاء[2] فصحح ما فيها من أخطاء وقدم لها ببضعة أسطر تنبأ فيها بنبوغ الشاعر ونصح له إن يرفد قريحته السخية بمادة اللغة وآلة الفن وأخذ عليه هذا الروح الحزين الذى يحمل عليه قيثارة المرح والشباب ولكن أنى للشاعر أن يظفر بهذا المرح والزيات نفسه الذى ينصحه لم يستطع الظفر به فى ظروف البيئة المشابهة ... هذه البيئة الانطوائية ذات المزاج الحزين فالزيات يصف هذه البيئة وأثرها فى نفسه فى المجلد الأول من « وحى الرسالة » فيقول :

« تسألنى لماذا ترجمت ڤرتر ... والجواب عن هذا السؤال حديث والحديث غدا سيكون قصة وليس يعنيك اليوم منها إلا ما نجم عنها . قال جيته يوما لصديقه اكرمان « كل امرىء يأتى عليه حين من دهره يظن فيه أن « ڤرتر » إنما كتبت له خاصة » .

وأنا سنة ١٩١٩ كنت أجتاز هذا الحين . شباب طرير حصره الحياء والانقباض والدرس ونمط التربية وطبيعة المجتمع فى حس مشبوب يتوقد شعورا بالجمال وقلب زغيب يتحرق ظمأ إلى الحب ونوازع طماحة ما تنفك تجيش وعواطف سيالة ما تكاد تتماسك ... فالطبيعة فى خيالى شعر وحركات الدهر نغم وقواعد الحياة فلسفة وكان فهمى لكل شيىء وحكمى على كل شخص يصدران عن منطق أفسد أقيسته الخيال وزوَّر نتائجه المثل الأعلى ثم غمر هذه الحال التى وصفت هوى دخيل هادىء ولكنه ملح فسبحت منه فى فيض سماوى من النشوة واللذة وأحسست أن وجودى الحالى قد امتلأ وقلبى الصادى قد ارتوى وحسى الفائر قد سكن وتخيلت أن حياتى الحائرة قد أخذت تسير فى طريق لاحب تنتثر على مدارجه نواضر الورود وترف على جوانبه نوافح الريحان وتزهو على حواشيه ألوان عبقر وترقص على حفافيه عرائس الحور . وذهبت أسلك هذا الطريق السحرى محمولا على جناح الهوى كأننى (فوست) على

---

(١) من رسالة شخصية من الأستاذ عبد الحميد طه شقيق الشاعر .

(٢) كان ذلك عام ١٩١٨ .

جناحى (ميفستوفاليس) حتى ذكرنى الزمان الغافل فأقام فيه عقبة اصطدم عندها الخيال بالواقع والحبيب بالخاطب والعاطفة بالمنفعة على أننى بقيت على رغم الصدمة حيًا ولابد للحى أن يسير !

تطلعت وراء العقبة انظر الطريق فإذا الأرض قفر والورد عوسج والريحان حمض والعرائس وحوش ... فشعرت حينئذ بالحاجة إلى الرفيق المؤنس ولكن أين أنشد ما أبغى وحولى من الفراغ نطاق مخيف وأمامى على أسنة الصخور أشلاء وجثث ؟ هذه أشباح صرعى الهوى تتراءى لعينى وهذه أرواح قتلاه تتهافت على وهذه سجلات مصارعهم بين يدى فلم لا أحدو بأناشيدهم رواحلى وأقطع بمناجاتهم مراحلى والتمس فى مواجعهم لهواى عزاء وسلوة ؟

قرأت : هيلويز الجديدة ورينيه وأتالا وأدولف ودمينيك وماريون دلورم ومانون ليسكو وذات الكاميليا وجرازيلا ورفائيل وچان دكريف .. وتوثقت بأشخاصها صلاتى وتصعدت فى زفراتهم زفراتى وتمثلت فى نهايتهم المحزنة نهايتى ولكنهم كانوا جميعا غيرى نتفق فى الموضوع ونفترق فى الوضع كالنساء النوادب فى مناحة تندب كل واحدة منهن فقيدها وموضوع الأسى للجميع واحد .. هو الموت .

فلما قرأت « آلام ڤرتر » سمعت نواحا غير ذلك النواح ورأيت روحا غير هاتيك الأرواح وأحسست حالا غير تلك الحال .

فنيت فى « جيته » وقادنى إلهامه وروحه وأهبت بلغة القرآن والوحى أن تتسع لهذه النغمات القدسية فأسعفتنى ببيانها الذى يتجدد على الدهر ويزهو على طول القرون . ثم أصبح ڤرتر بعد ذلك لنفسى صلاة حب ونشيد عزاء ورقية هم !! كأنما كان (جيته) يناديها من وراء الغيب حين يقول فى تقدمته لڤرتر : وأنت أيتها النفس .. إذا أشجاك ما أشجاه من غصة الهم وحرقة الجوى فاستمدى الصبر والعزاء من آلامه وتلمسى البرء والشفاء فى أسقامه واتخذى هذا الكتاب صاحبا وصديقا إذا أبى عليك دهرك أو خطؤك أن تجدى من الأصدقاء من هو أقرب إليك وأحنى عليك » .

وكان على طه أحد أفراد تلك البيئة فراح فى صدر شبابه ينفث شكاته الملحة فى أشعاره فهو يقول :

أيها الشاعر الكئيب مضى الليـ ـل ومازلت غارقا فى شجونك[1]
مسلما رأسك الحزين إلى الفكـ ـر وللسهد ذابلات جفونك
ويد تمسك اليراع وأخرى فى ارتعاش تمر فوق جبينك
وفم ناضب به حر أنفاسـ ـك يطغى على ضعيف أنينك
أنت أذ بلت قلبك الغـ ـض وحطمت من رقيق كبانك

ولعل أبلغ ما قاله معبرا عن شعوره بالوحدة فى مجتمعه قوله :

والأرض ضاق فضاؤها الرحب وخلت فلا أهل ولا سكن[2]
حال الهوى وتفرق الصحب وبقيت وحدك أنت والزمن

ولقد كان على طه يعانى فى صدر شبابه حرمانا آخر أشد إيلاما فى نفس الشاعر الموهوب الذى يحس بمقدرته ونبوغه .. ذلك هو الحرمان من التقدير الذى يزكى مواهبه ويدفعه إلى الإجادة والإنتاج ومرجع هذا الحرمان إلى قلة القراء لاسيما هؤلاء الذين يحفلون بالشعر حتى خيل إليه أن الأمر مرجعه إلى جحود العبقريات فى الشرق :

أيجحد فى الشرق النبوغ ويزدرى ويشقى بمصر النابهون الغطارف ؟[3]
يجوبون آفاق الحياة كأنهم رواحل بيد شردتها العواصف

كما أن بيئة الشاعر كان لها أثر كبير فى توجيه مطالعاته فلقد وجد كبار أدباء هذه البيئة ممن نهلوا من الثقافة اللاتينية ومعظمهم حينما سافر فى طلب العلم قصد إلى فرنسا وحج إلى مدينة النور كما يزعمونها وكانت ترجمة أعمال الأدباء الفرنسيين تغمر سوق الأدب العربى لاسيما الابتداعيين منهم أصحاب المذهب الرومانتيك وهو المذهب الذى مهدت

(١ ، ٢ ، ٣) ديوان « الملاح التائه » .

البيئة نفس الشاعر لقبوله بل زادته به تعلقا لأنه مذهب يتغلب فيه الشعور والخيال على العقل والتفكير مع روح من اليأس والتشاؤم والامتزاج بالطبيعة الخالدة - كعوض عن شعور الوحدة - إلى حد التفانى .

أما اليأس فقد تغلغل فى قلب الشاعر الشاب إلى أغوار عميقة لاسيما بعد أن وقف ليواجه الحياة بمفرده فهالته حقيقتها البشعة وقسوتها العاتية التى لم تأخذها الرحمة فيما صنع له خياله المحلق من عالم مثالى جميل قوضت دعائمه حقائقها المرة .

فاستمع إليه يقدم لقصيدته « التمثال »(١) نثرا فيقول « الإنسان صانع الأمل ينحت تمثاله من قلبه ومن روحه ولا يزال عاكفا عليه يبدع فى تصويره وصقله متخيلا فيه الحياة ومرحها وجمالها ولكن الزمن يمضى ولا يزال تمثاله طينا جامدا أو حجرا أصم حتى تخمد وقدة الشباب فى دم الصانع الطامح وتشعره السنون بالعجز والضعف فيفزع إلى صيد أحلامه هاتفا بتمثاله ولكن التمثال لا يتحرك ولكن الحلم الجميل لا يتحقق وهكذا تجتاح الليالى ذلك المعبد وتعصف بالتمثال فيهوى حطاما وهنا يصرخ اليأس الإنسانى ويمضى القدر فى عمله » .

ويصرخ الشاعر حقا فى ختام القصيدة مصورا أقصى درجات اليأس من هذه الحياة الدنيا :

مر نور الضحى على آدمى ... مطرق فى اختلاجه المصعوق
فى يديه حطامه الأمل الذا ... هب فى ميعة الصبا المرموق
واجما أطبق الأسى شفتيه ... غير صوت عبر الحياة طليق
صاح بالشمس : لا يرعك عذابى ... فاسكبى النار فى دمى وأريقى
نارك المشتهاة اندى على القلـ ... ـب واحنى من الفؤاد الشفيق
فخذى الجسم حفنة من رماد ... وخذى الروح شعلة من حريق

(١) ليالى الملاح التائه .

جن قلبى فما يرى دمه القـ ـانى على خنجر القضاء الرقيق

وفى هذه البيئة المنطوية على نفسها المترددة فى خطوها ونهوضها المتحفظة فى أوضاعها يلجأ الشاعر إلى الطبيعة يبثها الآمه ويشكو لها أحزانه ويتخذها رفيقا حنانا يهجع بين أحضانها وينسى أشجانه بين رياضها وأفنانها ويتفانى فى حبها فاستمع إليه فى نفس القصيدة يقول وقد اتخذ من الطبيعة رفاقا وشهودا وأصحابا بل وأما حانية عليه :

أقبل الليل واتخذت طريقى لك والنجم مؤنسى ورفيقى
وتوارى النهار خلف ستار شفقى من الغمام رقيق
مد طير المساء فيه جناحا كشراع فى لجة من عقيق
هو مثلى حيران يضرب فى الليـ ـل ويجتاز كل واد سحيق
عاد من رحلة الحياة كماعد ت وكل لوكره فى طريق
شهد النجم كم أخذت من الر وعة عنه ومن صفاء البريق
شهد الطير كم سكبت أغانيه على مسمعيك سكب الرحيق
شهد الكرم كم عصرت جناه وملأت الكؤوس من أبريق
شهد البر ما تركت من الغـ ـار على معطف الربيع الوريق
شهد البحر لم أدع فيه من در جدير بمفرقيك خليق
ولقد حير الطبيعة أسرا ئى لها كل ليلة وطروقى
واقتحامى الضحى عليها كراع أسيوى أو صائد أفريقى
أو إلّه مجنح يتراءى فى أساطير شاعر أغريقى
قلت لا تعجبى فما أنا إلا شبح لج فى الخفاء الوثيق
أنا يا أم صانع الأمل الضا حك فى صورة الغد المرموق

أما الخيال فهو من أدوات الشعر التى لا يستغنى عنها شاعر فى الوجود غير أنه يختلف قوة وضعفا من شاعر لآخر وقد كان عند على طه فى أوج قوته ورائع عظمته يسبح به فى عوالم من الرؤى والأحلام الجميلة ويحلق به فى آفاق رحبة من دنيا الابتداع فبأتى لنا بالعجيب من الصور والمبتكر من الفنون كملحمته الشعرية « أرواح وأشباح » وهى كتاب أفرده لحوار من الشعر بين آلهة الإغريق القدماء فى عالم الأرواح وبين شخصيات خرافية وآلهة شرقية وحد بينها هذا الحوار الذى رمى إلى تصوير حياة الشاعر ومصادر إلهامه .

وفى ديوانه « زهر وخمر » يقدم لنا فى قصيدته « حانة الشعراء » صورة مماثلة رائعة الخيال تجمع بين السمراء والبيضاء وبين ساكنة الأرض وساكنة السماء وقد تعمد أن يجعل أهل الفن يقبلون على فن راقصة زنجية معجبين فتحنق « ڤينوس » ربة الجمال لانصرافهم عنها وهو فى كل ذلك يرمز إلى الصراع القائم والذى ازداد عنفا فى عصرنا الحالى بين ارستوقراطية الفن والاتجاه به نحو الجماهير لمحاولة السمو بأزواقها .. فاستمع إلى بعض ما قال :

هى حانة شتى عجائبها ... معروشة بالزهر والقصب
فى ظلة باتت تداعبها ... أنفاس ليل مقمر السحب
« باخوس » فيها وهو صاحبها ... لم يخل حين أفاق من عجب

* * *

إبريقه – حلى من الدرر ... يزهى به قدح من الماس
وكأن ما حوليه من صور ... متحركات ذات أنفاس
تركت مواضعها من الأطر ... ومضت فى شبه أعراس

* * *

أو تلك حانته ؟ فواعجبا أم صنع أحلام وأهواء ؟
ومن الخيال أهل واقتربا «فينوس» خارجة من الماء
فى موكب يتمثل الطربا ويميل من سحر وإغراء
وبكل ناحية فتى وثبا متعلقا بذراع حسناء
يتوهجون صبابة وصبا يتمثلون غريب أزياء

* * *

جلسوا نشاوى مثلما قدموا يترقبون منافذ الباب
يتهامسون وهمسهم نغم يسرى على رنات أكواب
إن تسأل الخمار قال همو عشاق فن أهل آداب

* * *

وتلفتوا لما بدا شبح فنانةٌ دلفت من الباب
سمراء بالأزهار تتشح ألقت غلالتها بإعجاب
ومشت تراقصهم فما لمحوا إلا خطى روح وأعصاب
وسرى بسر رحيقه القدح فى صوت شاجى اللحن مطراب
وشدا بجو الحانة الفرح لآلهة فرت من الغاب

* * *

هى رقصة وكأنها حُلُمُ وإذا بفينوس تمد يدا
الكأس فيها وهى تضطرم قلب يهز نداؤه الأيدا
زنجية فى الفن تحتكم ؟ قد ضاع فن الخالدين سدى !
فأجابت السمراء تبتسم ألفن روحا كان؟ أم جسدا؟

ولم يقتصر أثر البيئة على شاعرنا فى توجيه مطالعاته نحو الثقافة اللاتينية ومتابعة كبار أدباء عصره كمطران والزيات وغيرهما بل نراه يبالغ فى اقتفاء آثار هذه الثقافة وخطوات هؤلاء الأدباء فيحن إلى ارتياد منابع هذه الثقافة والنهل منها وما إن تتيسر له أسباب الرحلة حتى يبادر بالسفر إلى أوربا فيرتادها عام ١٩٣٣ ويعاود السفر إليها أربع مرات أخر فى عام ١٩٣٦ و ١٩٣٩ ، ١٩٤٦ ، ١٩٤٨ وقد أعلنت الحرب العالمية الثانية وهو فى ألمانيا عام ١٩٣٩ .

ولعله فى رحلاته إلى أوروبا قد فكر أيضا فى الابتعاد عن قيود البيئة والتطلع إلى ما فاته فى وطنه من أسباب اللهو والملذات التى تحوطها فى مصر بعض القيود والمواضعات .

ولقد ظهرت آثار هذه الرحلات فى شعره وانتشرت صورها فى دواينه وأول ما انطبع فى مخيلة الشاعر هو الفارق فى نظره بين ما رأى من جمال الطبيعة والإنسان هناك وما خلفه وراءه فى وطنه فذهب يقارن بينهما فى قصيدته عن بحيرة كومو بوادى اللمبارد الإيطالى :

شاعر النيل طف بها غنها كل مبتكر
الثلاثون قد مضت فى التفاهات والهذر
فتزود من النعـ ـيم لأيامك الأخر
أين وادى النخيل أم قاهـريـاته الغـرر
لا تقل أخصب الثرى فهنا أورق الحجر(١)

وتنتهى به هذه المقارنة إلى تمنى الهجرة من وطنه إلى هذه المرابع الجميلة لولا أحبة بشاطىء النيل حبهم أقوى من هذه الأمنية وآثار راحلين أعزاء :

---

(١) ليالى « الملاح التائه » .

آه لـــــولا أحـــبة نزلـوا شاطىء النهر[١]
ورفـــات مطـــهر وكريم مـــن الســـير
لتمنـيت شــرفة لى فى هـــذه الحجر
اقطع العمــر عندها غيروان عن الســطر
فلقــد فـاز من رأى ولقــد عـاش من ظفر

أجل لقد فاز من رأى لكن الذى يظفر ببغيته هو الذى عاش حياته حقا ... وعلى طه يحس وقد تخطى الثلاثين أنه قد أضاع العمر فى وهم باطل وخيال لا طائل وراءه ... بينما هناك فى أوربا حياة ومتعة فليسرع باغتنامهما قبل أن تضيع البقية الباقية من العمر ويكفيه ما قاساه من حرمان :

ليالى البحر فى « كابرى » أم الفتنة فى البحر
وجنيات بحر الروم أم دنيا من السحر
على شط من الأحلام والأنغـــــــام والزهر
تنفس جــــــوها عطرا يفضضه سنا البدر
أريج البرتقال به ونفح العنب النضر
أم الآلهة العشاق بين الموج والصخر
أهلُّوا تحت أشرعة تقل عرائس الشعر
نشاوى الحسن والنور وبعض النور كالخمر
تنهد حين أبصرهم محب موغر الصدر
أقام الدهر موتورا من الحرمان والهجر

وإذا كان جمال « كابرى » قد شغل جانبا من هذا القصيد فإنا نراه

---

(١) ليالى « الملاح التائه » .

فى أنشودة أخرى يفرغ نفسه كلها للحب ونشوته ويدعو رفاقه لاغتنام ساعته :

يا رفاقى هـــذه الســاعة من حلم الزمان
إن هذا زمن الحـــب فضجــوا بالأغانى
ارفعوا الأقداح ملأى واشربوا نخب الحسان
فالربيع السمح يدعـــوكم إلى أقرب حان

* * *

الربيع المرح الجـــذلان يخـــتال فحــوراً
إنه الحسن الذى يملأ بالحـــب الصـــدورا
كيف لا نقطف منه الثــمر الحلــو النضيرا
أنت أيتـــها الشمس املإى الآفاق نورا(١)

ورغم هذه النشوة الغامرة التى يحسها الشاعر فى تلك البيئة الجديدة والانطلاق إلى تحصيل المرح والحب فهو لا ينسى مصريته بل نراه يعتز بقوميته ووطنه فيخاطب صاحبته إلى بحيرة كومو بإيطاليا وهى أمريكية بقوله :

يا ابنة العالــم الجديد صلـــى عالما غبــر
فى دمى مـــن تراثه نفحة البدو والحضر
وأغان لمـــن شـــدا ومـــعان لمـــن فخر

لكن على طه الشاعر يرى فى هذه البيئة الجديدة عليه أشياء أخرى غير ذلك .. إنه يحس أن هذه البيئة تطغى عليها المادة وتصبغ المادية جميع مظاهرها حتى أديها ... لقد نحى المذهب الابتداعى الذى يسود فى وطنه الأصلى عن مكان الصدارة هنا وتغلب عليه مذهب جديد يوائم

(١) أغنية الحب من ديوان « زهر وخمر » .

هذه البيئة بعد عام ١٩٣٠ .. لقد كانت الواقعية هى الغالبة فى الأدب الأوربى عامة .

ولعل على طه قد اقتنع بأن المذهب الواقعى فى الشعر والأدب هو الأنسب لتلك البيئة المادية وهو الأفضل لملائمة التطور العصرى فى مصر أيضًا لأنه تطور نحو المادية يسير فى اتجاه مضاد للخيال الابتداعى لكنه عاش بعدها مترددا بين الطريقين حتى إن القصيدة الواحدة تحس إذا قرأتها بحيرة كاتبها هذه ففى قصيدته « راقصة الحان » تراه يصف الراقصة وصفا واقعيا رائعا وينقل لنا صورة حية لرقصتها فيقول :

تضم الوشاح وتلقى به ... وفى خطوها عزة واختيال
تمد يديها وتثنيـــــــهما ... وترتد فى عوج واعتدال
كحورية النبع تطوى الرشاء ... وتجذب ممتلئات السجال
محيرة الطيف فى مائج ... من النور يغمرها حيث جال
على إصبعى قدم ألهمت ... هبوب الصبا ووثوب الغزال
وتجرى ذراعين منسابتين ... كفرعين من جدول فى انثيال
كأنهما حولها ترسمان ... تقاطيع جسم فريد المثال
تلّوى وتلهو كلُهَّابة ... تراقص قبل غناء الذبال
وتعلو وتهبط مثل الشراع ... ترامى الجنوب به والشمال
وتعدو كأن يدا خلفها ... تعذبها بسياط طوال
وتزحف رافعة وجهها ... ضراعة مستغفر فى ابتهال
وتسقط عانية للجبين ... كقمرية وقعت فى الحبال(١)

والراقصة فى اندفاعها فى تمثيل هذا الدور لا تحس الواقع حولها وما يعتلج فى صدور النظارة من نهم ورغبة .

---

(١) زهر وخمر .

فليست تحس اشتهاء النفوس وليست تحس عيون الرجال

لكن الشاعر وسط هذا الواقع وفى هذا المشهد الحسى يرى بعين خياله ويعتقد أن لهذه الراقصة رسالة روحية سامية فيقول لنا :

وليست ترى غير معبودها على عرشه العبقرى الجلال
دعاها الهوى عنده للمثول وما الفن إلا هوى وامتثال
وفى روحها نشوة حلوة كمهجورة منيت بالوصال

ومع هذا فالشاعر يلح فى هذه الواقعية الجديدة ويلقى بروحه فى أُتونها ويجد لذة فى استجلاء صورها فتراه يقول فى قصيدته « الحية الخالدة » (١) واصفا هذا اللقاء الجسدى العارم :

ولفت ذراعين كالحيتين على وبى نشوة لم تطرْ
وقد قربت فمها من فمى كشقين من قبس مستعر
أشم بأنفاسها رغبة ويهتف بى جفنها المنكسر
تبينت فى صدرها مصرعى وآخرة العاشق المنتحر

* * *

هو الحب ؟ لا .. بل نداء الحياة تلبيه أجسادنا الظامئة
يخف دمى لصداه الحبيب وتدفعنى القدرة الهازئة

لكنه بعد هذا الاندفاع نحو الواقعية ونحو النهل من اللذات يحس اغترابا عن بيئته الحقيقية وتنكراً لطبعه الأصيل ويستشعر ندما بعد أن تأثم فنه حين عب من الخمر وتعذب شعوره حين اقترب من النار فيصبح :

أخمر ونار ؟ لقد ضاق بى كيانى وأوشك أن أختنق
أرى ما أرى ؟ لهبا ؟ بل أشم رائحة الجسد المحترق !!

لقد كانت رحلاته إلى أوربا نقطة تحول فى اتجاهه الشعرى لا شك

---

(١) أرواح وأشباح .

وبدء لإيغاله فى الواقعية الفنية التى انتهجها فى الفترة الأخيرة من حياته إلا أنه كثيرا ما يغلبه الطبع الأصيل فيرتد شاعرا رومانسيا فى الكثير كما تجهده محاولة استحداث الاتجاه الواقعى فيأتينا بشعر تغلب عليه روح الصنعة والتهافت كقوله يحدث زهرات هيأها فى بيته وكان على موعد مع فاتنة أخلفته :

طال انتظارى ومضى موعدى وأنت مثلى ترقبين المساء[1]
كم لك عندى فى الهوى من يد يا زهراتى أنت رمز الوفاء

* * *

عما قليل سوف تلقينه أجمل ما تصبو إليه العيون
يطرق بابى معلنا أنه كل اصطبار فى هواه يهون

أو كقوله :

تسائلنى حلوة المبسم متى أنت قبلتنى فى فمى ؟[2]
تحدثت عنى وعن قبلة فيا لك من كاذب ملهم
فقلت أعابثها : بل نسيت وفى الثغر كانت وفى المعصم
سلى شفتيك بما حستاه من شفتى شاعر مغرم

شاعريته

حدثنى الأستاذ عبد الحميد طه شقيق الشاعر[3] بأنه بدأ يقرض الشعر وهو دون السادسة عشر من عمره ونشرت أولى قصائده فى « السفور » عام ١٩١٨ أى وهو دون السابعة عشر وقد أخذ عليه الأستاذ الزيات حينئذ ما جاء فى القصيدة من هنَّات لغوية ونصحه بأن يرفد قريحته بمادة اللغة وآلة الفن ولعل هذه الأخطاء اللغوية هى أهم ما عابه النقاد من شعر على طه ولقد كان مرجعها ولا ريب بعد ثقافته بعداً كبيرا عما ينمى فيه هذه المادة فهو قد تعلم تعليما صناعيا فنيا لا تعليما أدبيا لكنه رغم

(١ ، ٢) زهر وخمر .

(٣) مدير الثروة الصناعية بمصلحة الفلاح .

ذلك قد استجاب لنصيحة الزيات حتى إن شعره الأخير قد انعدمت فيه هذه الأخطاء التى لا تنتقص من شاعريته .

وَشعرُ الشاعر مرآة تنعكس فيها نفسه الصافية ذات الطباع الهادئة والخصال اللينة التى تنأى عن العنف حتى فى الوقت الذى يجمل فيه العنف والثورة .. ولنتأمل معى هذه الأبيات :

أخى ! جاوز الظالمون المدى   فحق الجهاد وحق الفدا
أنتركهم يغصبون العروبة   مجد الأبوة والسؤددا
وليس بغير صليل السيوف   يجيبون صوتا لنا أو صدى
فجرد حسامك من غمده   فليس له بعد أن يغمدا
أخى أيها العربى الأبى   أرى اليوم موعدنا لا الغدا

إنها لحظة حاسمة فى تاريخ العروبة تلك هى حرب فلسطين ومع خطورة الموقف وما يتطلبه من ثورة عنيفة جارفة تهز المشاعر وتستنهض الهمم والعواطف نرى على طه يدعو العرب إلى الثورة لكنها دعوة رقيقة تحاج العقل والمنطق وتدعوهم إلى القتال لأن الأعداء لن يستجيبوا إلا لصوت السيوف ولا يصح أن نتركهم يغتصبون مجدنا وديارنا .

يقول الأستاذ أنور المعداوى صديق الشاعر الحميم يصفه « لقد كان على طه[١] واحدا من هؤلاء الذين يفتحون القلب على مصراعيه أمام المخلص من الأصدقاء حتى ليخيل إلى من يعرفه منذ شهور أنه يعرفه منذ أعوام وأعوام ، كان واضحا فى فرحه كما كان واضحا فى حزنه وكان واضحا فى سره كما كان واضحا فى جهره حتى لو أنه حاول أن يصمت لكان صمته فنا من الكلام أو حاول أن يكتم لكان كتمانه ضربا من البوح والإفضاء . ومن هنا كانت حياته على لسانه سلسلة من الأحاديث وكانت فى شعره سلسلة من الاعترافات .. واستمع إلى هذا الاعتراف من كتابه

---

(١) العدد ١٦٨ من الرسالة .

(شرق وغرب) وهو حديث ينبع من قلب أبيض كزهرة الحقل البيضاء : •

إن أكن قد شربت نخب كئـ ـيرات وأترعت بالمدامة كأسى
وتولعت بالحسان لأنى مغرم بالجمال من كل جنس
وتوحدت فى الهوى ثم أشركـ ـت على حالتى رجاء ويأس
وتبذلت فى غرامى فلم أحبـ ـس على لذة شياطين رجسى
فبروحى أعيش فى عالم الفـ ـن طليقًا والطهر يملأ حسى
تائها فى بحاره لست أدرى لم أزجى الشراع أو فيم أرسى
لى قلب كزهرة الحقل بيضـ ـاء نمتها السماء من كل قبس
هو قيثارتى عليها أغنى وعليها وحدى أغنى لنفسى
لى إليها فى خلوتى همسات أنطقتها بكل رائع جرس

* * *

كم شفاه بهن من قبلاتى وهج النار فى عواصف خرس
ووساد جرت به عبراتى ضحك يومى منه وإطراق أمسى
أيهذى الخدور أنوارك الحمـ ـراء كم أشعلت ليالى أنسى
أحرقتهن ! آه لم يبق منهـ ـن سوى ذلك الرماد برأسى

هذا شعر صادق كل الصدق وأصدقه ذلك الوساد الذى جرت به العبرات .. ولابد لك من أن تقف معنا طويلا عند هذا البيت من هذه القصيدة الاعترافية لأن فيه مفتاحا رئيسيا يفصل بين فترتين من حياة الشاعر فترة تحفل بالدموع وفترة تعج بالبسمات الأولى فترة الأمس وما قبل الثلاثين والثانية فترة اليوم أو ما بعد الثلاثين .. وها هو ذا يعترف بأن يومه يضحك لمنظر العبرات فى حين يأسى لها الأمس ذلك الأسى المعبر عنه بالإطراق » .

وكما أن شعر الشاعر مرآة تنعكس فيها صورة نفسه كذلك نفس

الشاعر الحساسة مرآة تنعكس فيها صور بيئته ويتردد في جوانحها صدى أحداث عصره ولذا نرى على طه يسجل الفترات الوطنية فى تاريخ أمته وقد عاصر ثورة سنة ١٩١٩ التى اشتعلت وهو فى فجر شبابه ومقتبل العمر وكانت له فيها جولات من الشعر موفقة ولقد ظل ينبه المصريين بل والعرب بل والشرقيين عامة ويدعوهم للأخذ بأسباب القوة :

دعوها منـــى واتركوه خـــيالا   فما يعرف الحـق إلا النضالا
بنى الشـــرق ماذا وراء الوعود   تطل يميـنا وترنو شمالا ؟؟
وما حكمة الصـمت فى عالم   تضج المطامـــــع فيه اقتتالا
زمانكمو جـــارح لا يـــصف   رأيت الضعيف بـه لا يوالى

ونرى الشاعر فى سنى الحرب العالمية الأخيرة وقد تحقق للعالم إلى أى جحيم تقوده هذه المدنية المادية ووقف حائرا يتلمس خلاصا من سعير المادة وأخذ يولى وجهه شطر روحانيات الهند والصين والشرق عامة ‥ نرى الشاعر ينبه فى مطلع العام الهجرى ١٣٦٢ إلى ما شرعه الإسلام من اغتراب وعذاب وصراع فى سبيل المبدأ الحق والعدل الإلهى ‥ ويدعو إلى النهج الإسلامى نهج الإخوة والمحبة :

كن بشير الحب والنور إلى   مهج كلمى وأكباد دوامى
صفحات من صراع خالد   ضمنت كل فخار ووسام
لم تتح يوما لجبار طغى   أو لباغ فاتك السيف عرام
بل لداع أعزل فى قومه   مستباح الدم مهدور الذمام
زلزل العالم من أقطاره   بقوى الروح على القوم الطغام
وبنى أول دنيا حرة   برئت من كل ظلم وآثام
تسع الناس على ألوانهم   لم تفرق بين آرى وسامى

obeikandi.com

حاطم الأصنام ! هل منا يد تذر الظلم صديعا من حطام ؟

لم تطقها حجرا أو خشبا ويطاق اليوم أصنام الأنام[١]

وفى الحرب أيضا حد الرقيب من حرية الصحافة والكتّاب واختصرت أزمات التموين من حجم الصحف فضاقت بما لديها من مواد وأول ما اختصرته الشعر وقد عُدَّ من الكماليات فى تلك الفترة وقد عبر عن محنة الشعر وصورها تصويرا فكها لطيفا فى قصيدته « سمر »[٢] :

يا وحى شعرى أين أنت فى أى زاوية ركنت ؟

هل رحت فى إغماءة أم بالمخدر قد حقنت ؟

أم نمت أم نام الزما ن أم اعتقلت أم انسجنت ؟

أم خفت من قلم الرقيـ ـب فما أشرت وما أبنت ؟

أم هل سقيت (كزوزة) أم هل حسوت (البرمننت)[٣]

أم قد شربت زجاجة من صنع بار (الكونتيننت) ؟[٤]

أم فى البنوك لأزمة حلّت بأهلك قد رهنت ؟

وهو فى حرب فلسطين يسجل بطولة الجنود المصريين الذين حاصرهم الأعداء فى قرية الفلوجة عدة أشهر فصمدوا للحصار ولم يهنوا ولم يستسلموا فاستحقوا من الشاعر التحية :

هاتوا حديث الحرب كيف تطاحنت لكمـــو منازعها وهان عصيها

فى قرية محصـــــورة كسفـــينة فى لجة هاجت وماج غضـــوبها

لم تدر فيها الريـــــح أين قرارها ؟ والشمس أين شروقها وغروبها ؟

ولقد كان لحديث الحرب المتصل أثر فى نفس الشـــاعر وخياله الذى

(١ ، ٢) زهر وخمر .

(٣) شراب البيرمنت .

(٤) فندق الكونتيننتال بالقاهرة .

جمح به وسبح فى تاريخ العروبة ينقب عن صورة من البطولة تبز ما تناقله الناس فى الحرب العالمية الأخيرة من أحاديث موانىء الغزو وفرق الفدائيين « الكوماندو » فلم يجد أروع من غزوة طارق بن زياد للأندلس التى قام بها من ميناء طنجة فى إفريقيا فى أسطول يقل اثنى عشر ألف محارب منذ أكثر من ألف ومائتى عام وسار به إلى الصخرة الشماء التى نزل بها وسميت باسمه وحقق فى غزوته نصرا عظيماً فى أغنى وأجمل وأقوى بقاع القارة الأوربية بعد أن حطم أسطوله ليوجد رجاله بين أمرين أحلاهما قتال العدو :

أشباح جن فوق صدر الماء تهفو بأجنحة من الظلماء ؟(١)
أم تلك عقبان السماء وثبن من قنن الجبال على الخضم النائى ؟
لا بل سقين لحن تحت لواء لمن السفين ترى وأى لواء ؟
والشرق من بعد حقيقة عُالم والغرب من قرب خياله رائى ؟
ضحكت بصفحته المنى وتراقصت أطياف هـــــذى الجنة الخضراء
ووثبت فوق صخورها وتلمست كفاك قلـــــــبا ثائر الأهواء
فكأنما لك فى ذراها موعد ضربته أندلـــــــــسية للقاء
ووقفت والفتيان حولك وأنبرت لك صيـــــحة مرهوبة الأصداء
هذى الجزيرة إن جهلتم أمرها أنتم بها رهط من الغـــــرباء
البحر خلفى والعدو إزائى ضاع الطريق إلى السفين ورائى
وتلفتوا فإذا الخضم سحابة حمراء مطـــــبقة على الأرجاء
قد أحرق الربان كل سفينة من خلفه إلا شـــــراع رجاء
وأتى النهار وسار فيه طارق يبنى لملك الشـــــرق أى بناء

---

(١) زهر وخمر .

ومهما تكن المناسبة التى يتحدث عنها الشاعر فإنه لا يتحدث إلا عن شعور صادق وإحساس عميق بخطورة هذه المناسبة وأهميتها من وجهة نظره ولذا ندر فى شعر على طه المديح ولم يمدح إلا من استحق فى نظره المديح وكان له فى قلبه مكانة ومحبة فكان مديحه له آية من آيات الفن الرفيع ... ومن أمثلة هذا المديح قصيدته « الشاعر » التى قالها فى صديقه الشاعر الدكتور إبراهيم ناجى نقتطف منها هذه الأبيات :

عبقرى من النغم رجعه الحب والألم[1]
نبعه قلب شاعر شارف النور فى القمم
ورأى مولد الحيا ة على شاطىء العدم
ذوب الحب قلبه وبرى جسمه السقم
وجلا الغيب سره بين عينيه وارتسم
فانظروا أى شاعر هو فى الحقل بينكم
ذلك المبدع الروائع فى صورة الكلم
فاسمعوا الآن شعره وتملوه عـــن أمم
ضامر الجسم واسمه يسع الكون بالعظم
وقصير ومجـــده باذخ كالضحى أشم
ذلك الشاعر الذى فاز بالحب واتســم
خالد بالذى شـــدا خالد بالذى نظم
ذاك ناجى وحسبه أنه الشاعر العلم

كما أن شعر على طه يمتاز بخاصية التنسيق التى تنبعث من مزاجه كمهندس يضع تصميم المبنى أولا ثم يشرف على تنفيذه فى حدود هذا

---

(١) زهر وخمر .

التصميم فتأتى الصورة الشعرية فى نسق هندسى محدد المعالم والأهداف وكأنها تسير على أبعاد وزوايا هندسية رائعة لا تحيد عنها ولذلك قلما تجد فى صوره الشعرية ما ينبو عن الذوق أو يصدم البصر .. وإليك الغروب كما يصوره وقد توارى النهار خلف ستار من الغمام المخضب بلون الشفق الأحمر فعم الاحمرار المنعكس على الغمام الأفق فبدت الطيور فى السماء وهى متجهة إلى أوكارها كما لو كانت تسبح فى لجة من عقيق .. تلك لوحة فنية كاملة بجميع أبعادها وألوانها يقدمها لنا الشاعر المهندس :

أقبل الليـــل واتخـــذت طريقى ... لك والنجـــم مؤنسى ورفيقى
وتـــوارى النهـار خلـــف ستار ... شفقى من الغـــــمام رقيق
مد طيـــر المســاء فيـــه جناحا ... كشراع فى لجـــة من عقيق
هو مثلى حيران يضرب فى الليـ ... ـل ويجتاز كل واد ســـحيق
عاد من رحلـــة الحيـــاة كما عد ... ت وكل لوكـــــره فى طريق

ولا تمتاز هذه الصورة بالتنسيق فحسب بل والأصالة الشعرية لأن على طه سما بشعره عن التقليد والمحاكاة واتجه إلى مشاعره وخواطره يبرزها للناس إبرازا يتسم بالبساطة وصدق الأداء .

ولقد كان لعلى طه رقة فى الشعور مفرطة ووجدانا مرهفا سريع التأثر بما يقع من أحداث له أوللناس .. فيأسى ويحزن ويشتد أساه لو صادف فى طريق الحياة بائسا أو توهم أن إنسانا ما ممن يلقـــاهم يعانى ألما أو شدة .. ففى ذات مرة علم أن رئيسة الفرقة الموسيقية فى أحد مطاعم القاهرة التى كان يتردد عليها عمياء فحز فى نفسه ذلك العلم وأمضه وأوهمه أنها شقية بفقد بصرها وتستحق رثاء وعطف الشاعر كثيرا فذهب يصور ما تعانيه فى قصيدته « الموسيقية العمياء » التى تواصل بكاء خطبها .. ويأخذ هو بيدها ليريها مواضع الجمال فى الكون التى تستطيع إن تستمتع بها بلمسها بيديها دون حاجة للنظـــر ويدعو الأقـــدار للرفق

بها والطبيعة والكون كله لمواساتها ويبكى هو قبل كل شيء لهذا الخطب الفادح :

إذا ما طاف بالأرض شعاع الكوكب الفضى[1]
إذا ما أنَّت الريح وجاش البرق بالومض
إذا ما فتح الفجر عيون النرجس الغض
بكيت لزهرة تبكى بدمع غير مرفض

* * *

زواها الدهر لم تسعد من الإشراق باللمح
على جفنين ظمآنيـ ـن للأنداء والصبح
أمهد النور ما الليل قد لفك فى جنح ؟
أضيء فى خاطر الدنيا ووار سناك فى جرحى

* * *

أرى الأقداريا حسناء مثوى جرحك الدامى
أريها موضع السهم الذى سدده الرامى
أنيلى مشرق الإصباح هذا الكوكب الظامى
دعيه يرشف الأنوار من ينبوعها السامى

* * *

وخلى أدمع الفجر تقبل مغرب الشمس
ولا تبكى على يومك أو تأسى على الأمس
إليك الكون فاشتفى جمال الكون باللمس

---

(١) زهر وخمر .

خذى الأزهار فى كفيك فالأشواك فى نفسى

* * *

ومن آدمك المحبوب ؟ أو ما صورة الصب ؟
لقد ألهمت والإلها م ياحواء بالقلب
هو القلب هو الحب و ما الدنيا لدى الحب
سوى المكشوفة الأسـ ـرار والمهتوكة الحجب

* * *

سلى القيثار بيـ ـن يديك أى ملاحن غنى
وأى صبابة سالت على أوتاره لحنا
حوى الآمال والآ لام والفرحة والحزنا
حوى الآباد والأكـ ـوان فى لفظ وفى معنى

بل إن الشاعر أبصر ذات فجر جديد فتاة تسير فى الطريق بجوار بيته تتلفت خشية أن يراها رقيب فخيل إليه أنها بائسة من نساء الهوى أو فتاة عاثرة الحظ فى حبها فهم أن يسعى إليها ليخفف عنها آلامها الموهومة وذهب يصور قصتها شعرا رائعا فى قصيدته « سارية الفجر » :

عبرت بى فى صباح باكر فتنة العين وشغل الخاطر(١)
وبعينيها رؤى حـــائرة بين أسرار مســـاء غابر
صورت من حاضر العيش ومن أمسها قصـــة حب عاثر
من تراها ؟ وإلى أين ؟ ومن أى خدر طلـــعت أو سامر ؟
تقطع الإفريز من ناحيتى كأسير هارب من آسر
تتقى الأعين أن تبصرها وهى لا تألو التفات الحائر
لا تبالى بَلَلَ الثوب ولا لفحة البرد الشفيف الثائر

(١) زهر وخمر .

أو تبالى قدماها خاضتا مسرب الماء الدفوق الهامر
أنت يا سارية الفجر اسمعى دعوة الروح البرىء الطاهر
وأنا الشاعر قلبى رحمة لفريسات القضاء الجائر
إن نأت دارك يا أخت فما بعدت دار الغريب العابر

إن قلب على طه الكبير حملّه أكثر مما يحتمل وجعله يعتقد أنه مسئول عن كل بائس أو محزون بل إن نزعته الإنسانية تتعدى بيئته المحدودة لتشمل العالم كله ببرها ورحمتها .. ولقد بلغ الذروة فى قصيدته « ليلة عيد الميلاد »(١) التى كشف فيها عن الناحية الإنسانية العالمية فى نفسه وأبرزها كتابا مفتوحا للناس يدعوهم إلى السلم بعد أن ذاقوا من ويلات الحرب العالمية الأخيرة صنوفا وألوانا .

إنها ليلة الميلاد فليذكّر الشاعر الناس بتعاليم المسيح عليه السلام التى سداها الرحمة ولحمتها العطف والتسامح مع الباغى والمعتدى والمسىء .. إنه يسأل السيد المسيح الرجعة إلى الأرض ليعيد على القوم وصاياه . وأخص هذه الوصايا المحبة والإخاء .

وفى القصيدة فوق ذلك تصوير دقيق رائع لبيئة الحرب المقبضة وما استحدثته أساليبها من ظلام شامل فى المدن وعكوف فى الخنادق فى انتظار الموت من السماء أو الأرض .. وأخيرا لماذا القتال ؟ وعلام يقتل الإنسان أخاه الإنسان ؟ إنها خدعة كبرى لحساب الزعماء .. ؟ :

اسمعى ايتها الروح ! أفى الكون غناءُ ؟
وانظرى ! ... هل فى نواحى الأرض بالليل ضياءُ ؟
لا تراعى إن يكن قصّر عنك البشراء
فالنواقيس التى حيتك أشجاها القضاء

---

(١) زهر وخمر .

الشجى رجع صـــــداها والأســى والبرحاء

والتراتيـــــل من البيعـــة نـــوح وبكاء

رددتهن الثكالـــى واليتامـــى الشهداء

والمصابيح التـــــى كان بـــها يزهى المساء

خنقتها قبضة الشـــر فمـــــا فيها ذماء

صبغوها بســـــواد فهـــــى والليل سواء

مأتم للنور قام الويـــــل فيـــــه والشقاء

تحت ليل ماله بـــــدءا ولا منـــــه انتهاء

أيها المبعوث ،لا ضنَّت برجعـــاك السماء

انظر الأرض ٠٠ فهل فى الأرض حب وإخاء

نسى القـــوم وصـــاياك وضلوا وأساءوا !

وكما باعـــوك يا منقـــذ بيع الأبرياء !!

* * *

ليلة الميلاد ، والدنيـــا دمـــوع ودماء

فى ربوع كان فيها لك بالســـلم ازدهاء

باسمه يشدو المغنـــون ويشدو الشعراء

أين ولت هذه الفرحـــة ؟ أم أين الصفاء ؟

لم تصافحك من الأطفـــال أحـــلام وضاء

رقدوا غير عيون قد ريع منهـــن الفضاء

ترقب الآباء هل عادوا ؟ وهـــل حان اللقاء

بين أيدى أمهـــات بتـــن والليـــل جفاء

obeikandi.com

فى طوايا النفس يبكين وقد عز الرجاء
ويحهم أين تراهم ، هؤلاء الأشقياء ؟
هم وراء الليل أجساد وأرواح هباء
ووجوه رسم الرعب عليها ما يشاء
خندقوا فى مأزق الموت وما منه نجاء
بين موج من سعير يتوقاه الفناء
وجبال من ركام الثلج يرسيها الشتاء
وحديد طائر يحذر مسراه الهواء
وعجيب ! فيم للموت يساق التعساء ؟
فى سبيل الخبز ؟ والخبز اكتساب ورضاء ..
فى سبيل الحق ؟ والحق لدى القوم طلاء..
فى سبيل المجد ؟ والمجد من البغى براء ..
أوفى المجزرة الكبرى تنال المجد شاء ؟
كذب الباغى وللسيف بكفيه مضاء
وخداع كل ما قال ، وزور وافتراء ..(١)

هذه الرقة المتناهية والشعور السامى النبيل قد زادتهما الموسيقى عمقا وتأصلا فى قلب على طه الذى شغف بالموسيقى طول حياته وأجادها وكان من العازفين الماهرين على البيان وطالما أحيا الحفلات فى داره يعزف لضيوفه .. كما كان هو حريصاً على حضور حفلات الموسيقى وارتياد أماكن عزفها وكان يحب تناول العشاء غالبا فى مطعم به فرقة موسيقية .

ولم يكن هذا عجيبا من على طه لأن من كان فى مثل شاعريته

---

(١) زهر وخمر .

ومزاجه يستطيع تذوق الموسيقى وتفهمها وهى لغة العاطفة العالمية التى يتخاطب بها العالم أجمع دون وساطة أو ترجمان ·

وللطبيعة موسيقاها بل كل ما فيها أنغام متفرقة من لحن كبير تتردد أنغامه على قيثارة على طه فتشيع فيها قوة ويضفى هو عليها من قلبه روحا فتتحرر من جمودها وتنبض بالحياة وتصبح خليقة بنجوى الشاعر وصحبته بل وبأن تكون له معهداً وأستاذا :

معهدى هذه المروج وأستاذى ربيع الطبيعة الفينانة

وفى بحيرة « كومو » يقول :

ها هنا يشعر الجماد ويوحى لمن شعر

أجل لأن الطبيعة كلها حياة وحركة وهى تتأنق لمرتاديها ·· فهى تارة تتنقب بالغمام وطورا تسفر لمطلع القمر أو هى تلبس حلة السهر وهى تغرى الناس وتشجعهم بالقبل :

البحيرات والجبال قـ　　　ـد توشحن بالشجر
وتنقبن بالغـــــما　　　م وأســفرن بالقــمر
والبرونات غـــــادة　　　لبست حلة الـسهر
نثرت فوقهـــا الديا　　　ركما ينثـــر الزهر
وعبرنا رحابهـــــا　　　فأشـــارت لمن عبر
هاكها قبلة فمـــن　　　رام فليركـــب الخطر

بل إن على طه يبدأ قصائده بالحديث عن الطبيعة بدلا من النسيب الذى كان المتقدمون يستهلون به قصائدهم ·· لأنها هى الرفيق الوفى الذى يستجيب أبدا لندائه فتراه فى قصيدته « الموسيقية العمياء » يستهلها بقوله :

إذا ما طاف بالأرض　　　شعاع الكوكب الفضى
إذا ما أنَّــت الريح　　　وجاش البــرق بالومض

obeikandi.com

إذا ما فتح الفجـــر عيون النرجس الغض

بكيت لزهرة تبكى بدمع غيـــــر مرفض

الغزل فى شعره

سألت شقيق الفقيد الأستاذ عبد الحميد طه عن مكانة المرأة فى حياته فكتب إلى يقول (كان ينفر من الزواج وإن كان فكر فيه مرارا لأنه يعتبره كقيد قد يحد من هويته وعبقريته وحريته فعاش حياته الدنيا كالطائر الطليق يحلق فى أجواء الطبيعة ويستشف أسرارها ومكنوناتها يتمتع بأطايبها حتى إذا ارتوت نفسه أخرجها ألحانا وسحراً) .

ولم أجد أى دليل على أن عليا قد أحب الحب العنيف الذى يبتغيه الشاعر لذاته وللذعاته الموحية أو هذا الحب العفيف الذى يهدف إلى رباط مقدس بل كل ما علمت أنه خطب ابنة عم له ماتت قبل أن يقترن بها وليس لها فى شعره أثـــر ولـعل هـذه الخطـبة تمت وفق تقاليد البيئة حينئذ .. أى خطبة رسمية يقوم بها سيدات الأسرة ولا دخل للزوجين بأمورها فكان طبيعيا ألا يتأثر على طه بشخصية خطيبته تلك وألا تؤثر فى شعره .

وكل ما عرفته عن علاقاته الغرامية أنه كان على صلة لفترة ما بإحدى المطربات اللائى اشتغلن بالسينما المصرية كما أنه استقدم معه فى إحدى رحلاته إحدى بنات الهوى من أوربا ولا أظن أن مثل هذه العلاقات كانت تروى روح الفقيد الظامئة إلى الحب .

إنى أعتقد أن عليا لم يلق فى حياته المرأة التى تملأ فراغ قلبه وتشغفه حبا فيعشقها العشق العنيف ويسعى إليها سعيا حثيثا ويطلب الاقتران منها وكانت البيئة هى العامل الأول فى هذا إذ استشعر فيها الحرمان ورأى فيها الحجب المضروبة بينه وبين المرأة فانصرف عنها وظل يروض نفسه على هذا الحرمان المقيت حتى إذا ما تخطى الثلاثين انطلق ينهل من اللذات

وضاعفت رحلاته إلى أوربا من سعاره المادى فلم يعد يرى فى المرأة إلا جسدا ولذة وحتى عندما يحاول أن يتسامى فى شعره عن هذه المادية تجذبه متع الجسد إليها فيهوى من سمائه يتلمس هذه اللذة ... » .

يا حبيبى أقبل الليل ونادانى الغرام[1]
أى سر لمحب لم يصوره الظلام
كل نجمة مهجة تهفو وعين لا تنام
وشعاع البدر معشوق به جن الغمام
يا حبيبى كل عيش ما خلا الحب حرام
وحرام يا حبيبى
يا حبيبى سئم الليل سكوتى واكتئابى
أنا أهواك ولكن أنت لا تعلم ما بى
لحظة بين ذراعيك فقد طال عذابى
لحظة أمزج أنفاسك بالقلب المذاب
وأغنى ويغنى لك حبى وشبابى
وسلام يا حبيبى

لكنه عند بحيرة كومو لا يرى فى صاحبته إلا كل ما يثير فى نفسه الرغبة الجامحة وإلا نداء صارخا للمتعة :

نحن روحان عاصفا ن وجسمان من سقر
فاعذرى الروح إن طغى واعذرى الجسم إن ثأر
نضبت خمر بابل وهوى الكأس وانكسر
وهنا كرمة الخلو د فطوبى لمن عصر

---

(١) زهر وخمر .

غيم والنبـــــع دافق يشتكى الظامىء الصدر ؟
ولمن هذه العيـــــون تغمرن بالحـــــور ؟
ولمن توشـــــك الندى وثبة الطير فى السحر ؟
كل إلف لإلـــفـــــه هم بالصـــــدر وابتدر
عض فى الثوب واشتكى وطأة الخـــــز والوبر
ســـــمة الطائر المعذ ب فى قيـــــده نقر
ولمـــــن رفت المبا سم واســـترسل الشعر ؟
ثمر ناضـــــج الجنى كيف لا نقطف الثمر
ما أبى الخـــــلد آدم أو غوى فيه أو عثر

وفى شاطىء لوسرن بسويسرا يتحدث عن صديقته فى هذا الحوار الشعرى الجميل معترفا بأن الحرمان هو سر سورته العاطفية المشبوبة :

قلت لى والحياء يصبغ خديك . أنار تمشى بها أم دماء ؟(١)
ملء عينيك بافتى الشرق أحلام سكارى وصبوة واشتهاء
أو حقا دنياك زهر وخمر وغوان فواتن وغناء ؟

* * *

قلت يا فتنة الصبا حفلت دنياك بالحب والمنى والأغانى
ما أثارت حرارة الجسد المشتاق إلا مرارة الحرمان
إن أجسادنا معابر أرواح إلى كل رائع فتّان
أنا أهوى روحية العالم المنظور ولكن بالجسم والوجدان

* * *

---

(١) حب وحرب .

ما تكون الحياة لو أنكر الأحياء فيها طابع الأشياء
أنا أهواك كالفراشة صاغتها زهور الثرى وكف الضياء
أنا أهواك فتنة صاغها المثال من طينة ومن إغراء

* * *

أنا أهواك من آثام وطهر حلم إغفاءتى وصحو غرامى
أنا أهواك دفء قلبى وينبوع اشتهائى وشوقى وغرامى
وحنانا مجسدا إن طوانى الليل وسدت صدره آلامى

* * *

وتلاقت عيوننا فتدانت لى وجن الحنـــان فى شفتينا
فاعتنقنا فى قبلة قد أذابت جسـدينا ومازجت روحينا

وتبلغ سورته الذروة فلا يرى فى ملك الثرى ودنيا الشباب وعمر الزمان ورحيق الجنان ما يساوى لحظة فى أحضان حواء :

إذا قيل لى : هاك ملك الثرى ودنيا الشباب وعمـر الزمان[1]
فما لذتـــى بالـــذى نلته وما نشوتى برحيـــق الجنان
كرعشة روحـــى وهـزَّاتها وصدرى على صدرها واليدان

لكن على طه يحس وسط هذه النشوة صحوة للضمير تؤنبه على الإغراق فيها فيعتذر عن ذلك بأن الغرائز العاتية ، قد سلطت على قلب الشاعر لتعذبه أبدا :

قلـــوب تلذ بتعذيبـــها غرائز عاتيـــة عارمة
ترنّحها سكرات الهـــوى وتوقظها الفـتن النائمة
صحت من خمار ملذاتها تعنف أهوائهـــا الآثمة

---

(١) أرواح وأشباح .

أغانيه

إن أغانى على طه تسلكه فى عداد كبار الشعراء وفى مقدمة الشعراء المعاصرين لما ظفرت به من نجاح عظيم مرجعه ما امتازت به من سهولة التراكيب وعذوبتها وموسيقيتها ولما اتسمت به من طابع حزين يوائم البيئة .. مثل هذه الأسطر من أغنيته المشهورة « الجندول » :

أين من عينى هاتيك المجالى ... يا عروس البحر يا حلم الخيال
أين عشاقك سمار الليالى ... أين من واديك يا مهد الجمال
موكب الغيد وعيد الكرنفال ... وسرى الجندول فى عرض القنال

* * *

.....

.....

أنا من ضيع فى الأوهام عمره
نسى التاريخ أو أنسى ذكره
غير يوم لم يعد يذكر غيره
يوم أن قابلته أول مره

إن الموسيقار(١) الذى لحنها موسيقار حزين النغم دائما يشارك على طه فى الاستجابة لمزاج البيئة وقد وضع ألحان أغنية أخرى لعلى طه « كليوبتره »وهى صورة خيالية لحلم جميل لليلة من ليالى الملكة العظيمة :

حلم عذراء دعاها حبها ذات مساء
فتغنت بشراع من خيال الشعراء
يا حبيبى هذه ليلة حبى
آه لو شاركتنى أفراح قلبى !

---

(١) الأستاذ / محمد عبد الوهاب .

يا ضفاف النيل بالله ويا خضر الروابى
هل رأيتن على النهر فتى غض الاهاب
أسمر الجبهة كالخمرة فى النور المذاب
سابحا فى زورق من صنع أحلام الشباب ؟
إن يكن مر وحيًّا من بعيد أو قريب
فصفيه وأعيدى وصفه فهو حبيبى
يا حبيبى هذه ليلة حبى !
آه لو شاركتنى أفراح قلبى ![1]

كما تمتاز هذه الأغانى بالرقة المفرطة فاستمع إليه فى قصيدته « عاشقة » يعرض شكاتها على لسانها فى رقة تهز أوتار القلوب :

يا حبيبى غنت الفرحة فى كل مكان[2]
فهنا البلبل يشدو وهناك العاشقان
غير أنى أشتكى الوحشة فى ظل التدانى
إنما روحك فى الكون وروحى توأمان
لا تدعنى أقطع الأيام وحدى وأعانى
فحرام يا حبيبى

وعلى طه بعد ذلك يقدم للناس فى هذه الأغانى صورا عصرية مما يعرفونه ويشاهدونه ويفهمون مراميه ويتذوقون حلاوته ويتمنون الظفر بها:

إذا ارتقى البدر صفحة النهر
وضمنا فيه زورق يجرى

(١ ، ٢) زهر وخمر .

obeikandl.com

وداعبت نســــــمة من العطر
على محياك خصـــــلة الشعر
حسوتها قبلـــــة من الخمر
جن جنـــــونى لها وما أدرى
أى معانى الفنـــــون والسحر
ثغرك أوحى بهــــا إلى ثغرى

* * *

أعماله

كان على طه شاعرا مقلا لكن القليل الذى قاله إذا وزن بميزان الشعر رجح الكثير مما قاله غيره .

وقد عني على طه فى نشر دواوينه بطبعها طبعا أنيقا وإخراجها إخراجا فنيا رائعًا من حيث تنسيقها وتصويرها ومن الممكن ضم جميع أعماله فى مجلد واحد وأنى لأرجو أن يتحقق ذلك حتى يسهل على من يريد دراسته الإلمام به فى يسر وسهولة .

وما أرجوه ليس بدعا بل كثير من الشعراء جمعت أعمالهم فى كتب موحدة ومهما بلغت ضخامة أعمال على طه فلن تكون فى حجم أعمال شكسبير مثلا وقد ضمنها دفتى كتاب واحد .

لقد كتب على طه من دواوين الشعر :

١ - الملاح التائه .
٢ - ليالى الملاح التائه .
٣ - أرواح وأشباح .
٤ - زهر وخمر .
٥ - اغنية الرياح الأربع .
٦ - شرق وغرب .
٧ - الشوق العائد .
٨ - أرواح شاردة وهو يحتوى على نثر وشعر .

كما نشرت له دار النداء بعد وفاته كتاب « حب وحرب » وهو مجموعة من المقالات والقصائد والمقطوعات المترجمة التى نشرت بمجلة النداء .

والكثير من شعره ترجمه : المستشرق الأستاذ براكنبرى Pr : Branckenbury إلى الإنجليزية .

رحم الله على طه ذلك الشاعر الذى صور بيئته أصدق تصوير وعاش حياته كما رسمها فى شعره .. فى حيرة دائمة .

هو المرج الشارد المستهام شرود الفراشة عند المساء

* * *

مراجع البحث :

١ – كتب الشاعر .

٢ – حديث الأربعاء : لمعالى طه حسين باشا .

٣ – وحى الرسالة : لأحمد حسن الزيات بك .

٤ – بحوث الأستاذ أنور المعداوى بمجلة الرسالة .

٥ – شوارد ما نشر عن الفقيد بالصحف عقب وفاته .

* * *

obeikandl.com

إبراهيم ناجى

إبراهيم ناجى الشاعر أو الدكتور ناجى الطبيب الذى جعل من صناعة الطب شعرا وفنا إنسانيا نبيلا ... أو الفيلسوف الصوفى ناجى الذى كان لا يرى الحياة إلا طريق خير وعطف وصلة محبة ومودة فعاش حياته للناس وكل ما وصلت إليه يده كان للناس مشاعا وترك لغيره الشقاء فى سبيل المادة وقنع لنفسه بالشقاء فى سبيل الناس .

ولد ذلك الرجل الفذ عام ١٨٩٨ فى أسرة متوسطة الحال ودرس فى المدارس المصرية ثم سافر إلى لندن حيث عكف على دراسة الطب والأدب عدة سنوات ثم عاد إلى مصر ليعمل طبيبا فى مصلحة السكة الحديد ثم فى مستشفيات وزارة الأوقاف إلى أن وصل إلى وظيفة مراقب القسم الطبى بتلك الوزارة وقد استقال من هذه الوظيفة قبل وفاته ببضعة أيام تحت تأثير ظروف خاصة ومضايقات فى العمل مما تأباه عليه نفسه وفى صباح اليوم الرابع والعشرين من مارس سنة ١٩٥٣ كان يزاول عمله الإنسانى فى عيادته يفحص مريضا ثم ينصرف إلى ورقة يدون فيها بعض ما يهجس فى نفسه من أحاسيس أو ما يجول فى خاطره من شعر ثم يطرق بابه مريض آخر فيقوم بفحصه لكنه يعود إلى مكتبه ويمسك القلم ليكتب له الدواء لكنه يسقط على مكتبه فاقد الحياة فلا يسعفه طبه ولا الأطباء ، كان والد ناجى رجلا مثقفا وكانت له مكتبة كبيرة فى بيته يغرى أولاده على الاطلاع على ما فيها وكان فيها من ألوان الأدب الانجليزى الشىء الكثير وكان الرجل يريد لابنه ثقافة واسعة ، ولأترك ناجى يحدثنا عما أراده أبوه وما أرادته مطالعاته وما أراده القدر ... يقول ناجى : « أراد أبى شيئا وأراد ديكنز شيئا وأراد كوبر فيلد شيئا وأراد القدر أشياء غير هذه !

فقد شاء أن أكون طبيبا وليس بالطب من حرج وإنما الحرج أن يكون الشعر مركبا فى طبيعة إنسان فإذا بالقدر يضعه فوق أسنة المادة ويزجه فى الدائرة التى لا شعر فيها ولا خيال أو إنما الحرج أن تكون طبيعته أن ينصت إلى أنَّات الروح فيأخذه القدر إلى حيث ينصت إلى أنَّات الجسد وشتان بين هذه وتلك ! وإنما الحرج أن تجذبه طبيعته لناحية ومهنته لأخرى حتى يتمزق بين شد هذه وجذب تلك » .

أرأيتم كيف أن ناجى أشفق على نفسه من مهنته الطب بل لقد خشى أن يأتى يوما ينسى فيه الشعر والأدب والفن وتجرفه مهنته المادية فلا يذكر شيئا عن عالم الروح لكن متى انتصر الإنسان على أقداره ؟ :

وهل يأبق الإنسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسماء

كما قال أبو العلاء .

لقد تغلبت طبيعة الشاعر على مهنته فأحالتها رسالة للشعر فكان ناجى يمارس مهنة الطب فى كل مكان ... فى وظيفته وفى عيادته وفى الطريق وفى المقهى وفى مكان اللهو ... وكان يعود مرضاه الفقراء فى بيوتهم فى كل مكان من القاهرة ولا يأخذ منهم أجراً بل كان فى كثير من الأحيان يشترى لهم الدواء من ماله الخاص وهكذا فهم ناجى الطب أو أفهمته طبيعته أنه رسالة إنسانية عليه اداؤها كما يؤدى رسالة الشعر .

ولقد تأثر ناجى فى حياته بتوجيه والده أول ما تأثر وكان لذلك الوالد أعمق الأثر فى توجيهه وتنمية مواهبه الأدبية والشعرية لكثرة ما قرأ عليه من الأدب العربى والانجليزى حتى شغف ناجى بالمطالعة وأكثر منها لا سيَّما فى الشعر حتى أنه كان يحفظ الجزء الأول من (ديوان الخليل) عن ظهر قلب وكان لهذه المطالعات أثرها السريع فى نفسه فبدأ ينظم الشعر فى سن مبكرة ثم انضم إلى جماعة « أبوللو » التى أسسها الشاعر

أبو شادى وعلا نجمه فى سماء الشعر وظهر تفوقه ونبوغه ولا شك أن رحلته إلى إنجلترا أتاحت له فرصة أكبر ليغترف من بحار الأدب الإنجليزى وقد ظهرت آثار ذلك فى كل أعماله الأدبية سواء فى النثر أو الشعر وفى ميله إلى الغوص إلى أعماق النفس البشرية ليكشف عن العوامل الخفية التى تدفع الإنسان فى الحياة .

لكن ظل ناجى حياته يحس فى أعماقه بشخصيتين متناقضتين .. الطبيب والشاعر .. العالم والفنان وظلت هاتان الشخصيتان تتجاذبانه حتى مزقتا نفسه .

وتراه دائما حائرا بين طبيعتيه حيرة أورثته ألما محضا لا يجد له منه مهربا فيصرخ مستغيثا :

ليت شعرى أين منه مهربى أين يمضى هارب من دمه ؟

ولا شك عندى فى أن ناجى ما اتجه إلى دراسة الفلسفة وما تعمق فى دراسة فرع علم النفس منها إلا بحثا وراء طريق يريحه من هذه الحيرة التى اكتنفت حياته فلم تدع له إلى راحة النفس من سبيل ... كشف له علم الطب والفلسفة عن حقائق كثيرة من حقائق الحياة وعاونتهما فى ذلك بصيرة الفنان النفاذة الناقدة ... لكن الحياة عندما كشفت عن بعضها لناجى جعلته يرتاع منها ويسىء الظن بنواياها حتى تمنى الجهل فقال :

كل شىء صار مرًّا فى فمى بعد أن أصبحت بالدهر عليما

آه من يأخذ عمـــرى كله ويعيد الطفل والجهـــل القديما

وطغت الفلسفة على حياة ناجى وصبغت كل شىء حتى صوره الشعرية فاستمع إليه فى قصيدته « الظمأ الكبير » التى يحاول فيها أن يعلل هذا الظمأ الذى يحسه ولا يجد له ريا لأنه لا رغبة له فى قدح الساقى بل فى روح الساقى :

قسما بسرك فى ضميرى وجوى كمشبوب السعير
يامن أردت الرى لى ما فى كؤوسك من مجير
من خمر أولها ظمئت فما انتفاعى بالأخير
إنى عييت بصبوتى وشقيت بالظمأ الكبير
من ذا يعين على الهجير فكى القيود عن الأسير
لا نبع فى القفر السحيق ولا نجاة على الغدير
شفتاك وعد غد وأن غدا مديد كالدهور
خلى سرابك فيهما ما فى سرابك من نصير
وحيى على لمحاته بين القلائد والنحور
متألق الأمواج يغـــ ـــرى بالمرافىء والثغور

* * *

خطر الهوى وخلوده فى ذلك الحسن الخطير
فمن الصخور إلى العباب ومن عبابك للصخور

* * *

يا مالكا حالى ويا قدرى الخفى ويا مصيرى
لا بالسلاف ولا للكؤوس ولا الند أبدا يا أميرى
إنى إلى الساقى ظمأى وليس للماء النمير

ونراه أخيرا ينزع إلى نوع من التصوف ويحاول ألوانا من التجرد الروحى فيتنكر للماديات فى حياته ويعيش عيشة هى أقرب إلى حياة الزاهد وتشيع هذه الصبغة الصوفية فى شعره كله حتى إذا أنشد فى الغزل فهو أقرب إلى المتصوفة منه إلى روح العصر الذى يعيش فيه .. أسمعه يتحدث « إلى س ... » :

همست فى خاطرى فاستيقظت روحى الحيرى وأصغت لنداها
وأنا إن لم أكن توأمها فكأنى كنت فى الغيب أخاها
نحن أرواح حيارى ثملت وانتشت سكرى على لحن أساها
قربى روحك منى قربى ظلليني واغمريني برضاها
وتعالى حدثينى ! حدثينى ! أنت مرأة شجونى وصداها
فهبينى ساعة الصفو التى تقسم الأيام ما فيها سواها
ثم أمضى لحياة مرة صبحها عندى سواء ومساها

حتى فى ساعة اللهو تراه ينظر إلى الراقصة فلا يقنع بما يراه من لهوها بل يغوص فى نفسها ويبحث بين حنايا قلبها فلا يجد إلا آلاما من آلام الحياة فيتحدث عن هذا القلب فى قصيدة طويلة جاء فيها عن هذا القلب :

صبته فى كأس وما سكبت فيه سوى أنَّات مذبوح

ولقد أصبح ناجى فى يوم ملء الأسماع فى مصر والشرق وسمعت عنه الكثير الذى شاقنى إلى رؤيته حتى ساقته المقادير – منذ ستة أعوام – إلى أسيوط فى زيارة عابرة فالتقيت به فإذا أنا أمام رجل يفيض رقة وحياء وتواضعا حتى أنى لما هممت أن أحدثه عن نفسه وأثنى على بعض إنتاجه قال لى مبتسماً :

« يا أخى يقول النـاس على أنى بين الأطباء شاعر وبين الشعراء طبيب » .. فما رأيت تواضعا بلغ هذا الحد :

أما شاعريته فقد كانت قوية رائعة صافية كنفسه تفيض حيوية وإنسانية كقلبه فوسعت بيئته وأجادت التعبير عن كل ما وقعت عليه عيناه فى هذا الوجود وهو كثير .

وكان يصدر فى شعره عن إحساس قوى عميق بالحياة وإنك لتحس أنه يقتطع الصور من نفسه ويلونها بمداد من دمه حتى الطبيعة حين

يصورها تأتى صورها مختلطة بحالاته النفسية وآماله وآلامه فاستمع إليه يتحدث إلى البحر فى قصيدته « خواطر الغروب » :

قلت للبحر إذ وقفت مساء ... كم أطلتُ الوقوف والإصغاءَ
وجعلت النسيم زاداً لروحى ... وشربت الظلال والأضواء
إنما يفهم الشبيه شبيها ... أيها البحر نحن لسنا سواء
أنت عات ونحن حرب الليالى ... مزقتنا وصيرتنا هباء
أنت باق ونحن كالزبد الذى ... هب يعلو حينا ويمضى جفاء

أما إذا أنشد ناجى فى الغزل فهو إمام عصره فى هذا الفن بلا نزاع .. ولم لا وهو الذى تفتحت عيناء على الحب وظل حياته يلتمسه فى كل مكان ويعرض قلبه للهيبه المحرق ويحوم حول نيرانه اللافحة ويتلظى فى سعيره المشبوب .

فاستمع إلى أنَّات الحب الصادق ولهفة المحب وظمئه وخوفه وإشفاقه من أن يؤذى الحبيب بنيران حبه :

يا حنانا كيد الآسى الرءوم ... وشعاعا يُشْتَهى بعد الغيوم
أنا فى بعدك مفقود الهدى ... ضائع أعشو إلى نور كريم
أشترى الأحلام فى سوق المنى ... وأبيع العمر فى سوق الهموم
لا تقل لى فى غد موعدنا ... فالغد الموعود ناء كالنجوم
يا جنان الخلد قدمت اعتذارى ... إذ يطوف الخلد سقمى ودمارى
أيها الآمر فى ملك الهوى ... اعفُ عن لهفة روحى وأوارى
اشتهى ضمك حتى اشتفى ... فكأنى ظامىء آخذُ ثارى
غير أنى كلما امتدت يدى ... لعناق خفت أن تؤذيك نارى

وفى قصيدته (رجوع الغريب) تصوير رائع لتلك العواطف المتأججة فى صدره وقد أهاجها اللقاء بعد طول فراق كابد فيه ناجى من أهوال الحب :

عادت لطائرها الذى غناها ... وشدا فهاج حنينها وشجاها
أَى الحظوظ أعادها لى فيِّها ... ونجىّ وحدتها وإلف صباها ؟
مشبوبة التحنان تكتم نارها ... عبثا وتخشى أن يبين لظاها !
يا إلفى المنشود سرك ذائع ... نار الحنين دفينها أفشاها !
فيم السؤال ؛ أما يدلك جارف ... من صبوتى جاز المدى وتناهى ؟
ودموع أشعار أثرْت نواحها ... وجمالك الوحى الذى أملاها ؟

أما الصبر الذى كان يحمل نفسه عليه حملا وهو المحب الموله الدنف فقد صوره أبدع تصوير وأعجبه فى قصيدته « الانتظار » التى تجتزىء منها بهذه الأبيات :

لعينيك احتملنا ما احتملنا ... وبالحرمان والذل ارتضينا
وهان إذا عطفت ولو خيالا ... وأين خيالك المعبود أينا ؟
تعال فلم يعد فى الحى سارٍ ... وهومت المنازل بعد وهنِ !
وران على نوافذها ظلام ... وقد كانت تطل كألف عين !
ومنتظر بأبصارى وسمعى ... كما انتظرتك أيامى جميعا
وهل كان الهوى إلا انتظارا ... شتائى فيه ينتظر الربيعا ؟

ومن قصيدة له لم تنشر بعد أنقل إليكم بعض أبيات وكأنى به يخاطب بها حبًّا جديدا والقصيدة بعنوان « باقة ورد » :

obeikandl.com

أنت يا من جعلت روض حياتى مهد ورد إليك وردك ردّا
آية الورد أنه نفحة منك ومن عطرك الشذى استمدا
هذه باقة من الورد تجثو ملك فى الرياض أصبح عبدا
يا جمال الجمال من خلد الحسن جميعا فى نظرة منك تفدى
يا صباح الصباح من يملك للأضواء وصفا وللفـــــــرائد عدا
ليس بدعا يا وردة العمر أن لمغناك وردة الروض تهدى
لا تظنى وردا يكافىء وردا أنت أعلى حسنا وأكرم وردا
غير أنى وإن عجزت عن التقدير حاولت ما تمـــكنت جهدا
رامزا للوفاء بالورد وللقلب لى أعمق السرائر ودا
وإلى العيد أنت عيد لأيامى جميعا أنت الحبيب المفدى

ومن ألعجيب أن أرى ناقدا أديبا ينعى على ناجى أنه عاش وحيدا فى أحلامه وضاق شعره عن أن يسع حياة مواطنيه فيما حوله بينما لو أنصف الناقد الكريم لرثى لناجى وأشفق عليه من الوحدة التى كان يحسها فى هذا العالم حيث كان يفتقد دائماً صدى مشاعره فى بيئته هو الذى عاش من أجل الناس يبحث لهم عن السعادة ويقدم لهم كل ما ملكت يمينه ويبذل من نفسه لمواطنيه صباح مساء وإذا ما عاد مكدودا بعد يوم عمله لا يجد أحدا يشركه آراءه أو يشكو له مجهوده وكأنه شاذ فى مجتمعه أو غريب عن عصره وبيئته فتنفطر نفسه أسى وما أروع قوله يصور حاله :

يا قاسى البعد كيف تبتعدُ إنى غريب الديار منفردُ
إن خاننى اليوم فيك قلت غدا وأين منى ومن لقاك غد ؟
إن غدا هوة لناظرها تكاد فيها الظنون ترتعد

أطل فى عمقها أسـائلها   أفيك أخفى خياله الأبد ؟
ملء ضلوعى لظى وأعجبه   أنى بهذا اللهيب أبترد
ياتاركى حيث كان مجلسنا   وحيث غناك قلبى الغرد
أرنو إلى الناس فى جموعهم   أشقتهم الحادثات أم سعدوا ؟
تفرقوا أم همُ بها احتشدوا   وغوّروا هابطين أم صعدوا ؟
إنى غريب تعال يا سكنى   فليس لى فى زحامهم أحد

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كان يحس الشاعر بقيود كثيرة تحد من حريته فيحاول التخلص منها لأنها تقتل منه الروح :

أعطنى حريتى أطلق يدى   إننى أعطيت ما استبقيت شيئاً
آه من قيدك أوهى معصمى   كيف أبقيه وما أبقى علىّ

ويشيع التشاؤم بعد ذلك فى شعر ناجى حتى يئس من الحياة ولم يعد يرى لوجوده معنى بعد أن توالت عليه النكبات والمنغصات فترك على مكتبه هذه القصيدة التى لم تتم :

أمل ضائع ولب مشرد   بين حب طغى وجرح تمرَّد
وضلال مشت إليه الليالى   هاتكات قناعه فتجرد
فغدا شاحباً كيوم قتيل   لم يكد يلثم الصباح المورد
غفر الله وهما من ليال   صورت لى الربيع والروض أجرد
قاسمتنى الورقاء أحزان قلبى   وشجاه وغردت حين غرد
ثم ولت والقلب كالوتر الرا   مى يتيم الدموع واللحن مفرد
ما بقائى ؟ أرى إطراد فنائى   وانتهائى فى صورة تتجرد

وتشتد القيود ويرى ناجى من صحبه الغدر والخيانة فيسوء ظنه بالناس ويفكر فى الموت كالمخلص الوحيد من عناء الحياة وغدر الناس .

obeikandi.com

عندما تخلو ديار من رفيق وتحس السم فى كأس وساقى
عندما يكشف حظ وجهه سافر اللعنة مفقود الخلاق
عندما تمسى بظلٍ عالقا وبخيط الوهم مشدود الوثاق
يا فؤاد انظر وفكر وأفق أى قيد لك بالأوطان باق

ولقد كان ناجى من كتاب القصة المبدعين وقد وجد فى القصة القصيرة وسيلة للتعبير بها عن آمال قومه فكانت قصصه صورا حية للبيئة المحيطة به وما يختلج فى قلوب أفرادها من آمال وآلام وقد نحا فى أواخر أيامه منحى التحليل النفسى فاهتم فى قصصه بعرض نفسيات أبطاله للقراء وإبراز العوامل النفسية الخفية فى قلوبهم وإنى لأذكر له قصة « زازا » التى نشرها فى إحدى المجلات فيما يقرب من عشرين عددا .

كما أن ناجى اهتم بالصحافة كثيرا وكان قبل وفاته يكتب فى عدد ضخم من الصحف ينشر فيها مقالاته النثرية التى اتسمت بطابع الفلسفة والنظرة المجردة للحياة فتراه يوما يتحدث عن (رسالة الحياة) فينتهى من الحديث إلى قوله : « ويمكننا من هذا أن نستشف رسالة أبناء الحياة فالحياة تسعى إلى البقاء وتهدف للكمال فرسالة أبنائها أن يتعاونوا على البقاء والكمال » لكن روح التشاؤم التى سادت حياته تطغى على نثره كما طغت على شعره فاقرأه يوما يقول « سنظل ندور كالنحلة إلى أن نموت ونحترق كالشمعة إلى أن نذوب » رحم الله ناجى فلقد قدم حياته قربانا رخيصا لفنه .

* * *